



المؤسسة العسكرية في الإسلام  
وتطورات معاصرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# المؤسسة العسكرية في الإسلام

## وتطورات معاصرة

تأليف  
أحمد راتب عرموش

دار النهائس

المؤسسة العسكرية في الإسلام وتطورات معاصرة  
تأليف: أحمد راتب عرموش  
جميع الحقوق محفوظة لـ «دار النفاس»  
الطبعة الأولى: ٢٠١٨ هـ / ١٤٣٩ م  
ISBN: 978-9953-18-587-3

**publisher**



DAR AN-NAFAES

**Printing-Publishing-distribution**

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194

Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com

**نشر**



**دار النفاس**  
للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان - بناية الصباح

وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14

الرمز البريدي: 2020 - 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 009611810194 - 803152

بيروت - لبنان

Web Site: www.alnafaes.com

## الإهداء

إلى روحه والدي رحمهما الله  
اللتين أطنهما تراقبان من البرزخ ثمار غرسهما،  
على رجاء اللقاء في جنات الخلود.





## تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن واقع العالم العربي، وحال أمة المسلمين تدعو كل عربي، وكل مسلم غيور على عقيدته وببلاده إلى التأمل والتفكير في أسباب التخلف الذي لا يخفى على عاقل في مختلف الميادين، بعدهما كان المسلمون، بقيادة العرب، سادة العالم وحملة الحضارة إلى شعوب الأرض قاطبة.

ولا ريب بأن القوة العسكرية هي التي تُرْهِب أعداء الأمة وتجعلها عزيزة كريمة، وتنجح الاستقرار فيها والازدهار.

وقد كانت الأمة قوية مرهوبة الجانب عندما كان المسلمون يندفعون إلى القتال، لا يهابون الموت لكي تُوهَّب لهم الحياة.

وكانوا شعباً مسلحاً مستعداً للقتال دفاعاً عن عقيدته وأرضه في أي زمان ومكان. بينما نجد في العصر الحاضر شباب الأمة يحجمون عن تأدية الخدمة الإلزامية لأسباب ستفصلها في مكانها من هذا البحث، كما يمتنعون عن تعلم فنون القتال واستعمال الأسلحة، ويتهربون من الانخراط في الوظائف العسكرية، إلا لأسباب ليس من بينها إعلاء شأن الأمة.

هذا الواقع المحزن هو الذي دفعني إلى اختيار الكتابة في هذا الموضوع الذي كان في الأصل أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه،

وفرضت ظروف طارئة خارجة عن الإرادة التوقف عن متابعة الكتابة فيه لسنوات، ثم عدت إليه لازدياد الحاجة إليه، وتلبية لرغبة زملاء غيريين على بلادهم وعقيدتهم، تمنّوا على أن أنجزه قبل إنجاز موضوعات أخرى أعمل فيها أقلّ أهميّة في رأيهم.

والموضوع هو «المؤسسة العسكرية في الإسلام وتطورات معاصرة» وهو موضوع يصعب الإلمام بمختلف جوانبه لحرص الدول كلّها، قديماً وحديثاً، على سرية كل ما يخص جيوشها من تعداد وتشكيلات وتسلیح وتدريب وغيره.

ومعظم المؤلفين الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي، من عسكريين ومدنيين، اقتصرت أبحاثهم على قادة المسلمين وعلى المعارك الكبرى التي خاضوها، ولم يتطرقوا إلى الحديث عن المؤسسة ذاتها.. كيف نشأت؟ وما هي عقیدتها؟ وكيف تطورت؟...

وللإحاطة بالموضوع من جوانبه المختلفة سنبدأ البحث بتكون شخصية المسلم التي عمل عليها الرسول ﷺ سنوات قبل الانتقال إلى المجابهة العسكرية.

ثم نبحث تشكيل أول جيش مسلم، وتطوره التاريخي من بداية إنشاء الدولة في المدينة لغاية نهاية الخلافة العثمانية.

وستضطرنا ماهية البحث إلى التوسيع في تكوين الجيش في زمن الرسول ﷺ وصدر الإسلام، لأنّه يشكل الأساس الذي اعتمدته المسلمون لاحقاً.. وسنقتصر على تناول مراحل معينة، أو أحداثاً منتقاة من التاريخ الإسلامي، تفيد موضوعنا، وبخاصة عند حصول نقلة نوعية في التسلیح أو التجنيد.

وستنتقل بعد ذلك إلى عرض مقتراحات نراها مناسبة لتكوين جيوش حديثة مقاتلة تحمي الديار وتزود عن العقيدة والأوطان.

وسيمكون ذلك كله في إطار الجيوش النظامية. وأما المؤسسات والتنظيمات غير التقليدية كما في الثورات وحروب التحرير الشعبية، أو الذرية أو الالكترونية، فلن نتناولها في هذا الكتاب.

ونختتم بالتصديع إلى الله وَجَلَّ أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به العرب والمسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

أحمد راتب عرموش



## الباب الأول

المؤسسة العسكرية

في عصر النبي ﷺ

والخلفاء الراشدين





## الفصل الأول

### تكوين شخصية المسلم



#### تمهيد

يُجدر بنا قبل الحديث عن تكوين شخصية المسلم الإلمام بأرض الدعوة، الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>، والسيرة النبوية الشريفة.

فالجزيرة العربية هي شبه جزيرة محاطة بالبحار من الشرق والغرب والجنوب، وتتصل ببادية الشام من الشمال. وهي أرض صحراوية شاسعة يختلف فيها المناخ بين منطقة وأخرى ويغلب عليها الجفاف وقلة الأمطار وارتفاع درجة الحرارة وخاصة في الصيف، وتخلو من نهر دائم الجريان. وتشمل حالياً: المملكة العربية السعودية، واليمن، وسلطنة عمان، ودولة الإمارات العربية المتحدة، والكويت، والبحرين. ولا أظن أن مناخها اختلف كثيراً في هذه الأيام عنه في عصر النبوة.

هذه البيئة فرضت على سكانها الحياة القبلية، وعدم الاستقرار والتنقل طلباً للماء والكلا، والصراع على منابع المياه وعلى الأراضي الخصبة، ما ملأ حياتهم بالغزو والحروب والثار.

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن بيئه الدعوه انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، أحمد راتب عمروش، دار النفائس، لبنان، ط٣، ٢٠٠٢م، ص ٢٤.

واشتهروا بالفضاحة والشعر والتفاخر بالفروسيّة والأنساب، وحافظوا على حيّاتهم القبليّة حتّى في حواضرهم القليلة، إذ لم تشتهر إلّا مدينتاً مكّة والمدينة.

ومكّة تحضن الحرم الشريـف والبيـت العتيـق الـذـي رفعـه إبراهـيم الخـليل، أبو الأنـبيـاء.

ومن القبائل التي استقرت فيها قريـش، التي تولـت رعاية البيـت الحرام، وخدمة الكـعبـة، ورعاـية الحجـاج والـمعـتمـرين، وتقـاسـمت فـروع قـريـش تلك الخـدمـات.

وكان أهل مكـة تجـارـاً يـتنـقلـون، وينـقلـون البـضـائـع بـيـن الـيـمـن الـتـي تـرـدـها بـضـائـع من المـشـرق كالـهـند والـصـين، وبيـن الشـام المـنـفـتـحة عـلـى كـثـير من المـنـاطـق في الشـمـال.

وكانوا كـغـيرـهم من سـكـان الجـزـيرـة العـرـبـية يـعـبدـون الأـصـنـام، بينما كان الغـسـاسـنة عـلـى تخـوم بلـاد الشـام قد تـنـصـروا، وتحـالـفـوا مع الرـوم. وإلـى الشـمـال الشـرـقي من الجـزـيرـة العـرـبـية أـقامـوا دـولـتـهم وتحـالـفـوا مع الفـرسـ. وكان الرـومـ والـفـرسـ يـتـقـاسـمـان العـالـمـ المـتـحـضـرـ في ذـلـكـ الزـمانـ.

وكان العـربـ يـحـجـون إلـى مـكـةـ فـي الجـاهـلـيـةـ، فـهـيـ اكتـسـبتـ قدـسـيـتـها عنـهـمـ منـ النـبـيـ إـبـراهـيم ﷺـ، الـذـي رـفـعـ قـوـاعـدـ الـبـيـتـ فـيـهاـ.

وحيـثـ إـنـهـ كان يـصـبـ الحـجـ فيـ ظـرـوفـهـ غـيرـ الـآـمـنـةـ، وـحـيـاتـهـ الـقـائـمةـ عـلـىـ الـحـرـوبـ وـالـغـزوـ وـالـنـهـبـ وـالـسـلـبـ، اـتـفـقـتـ مـخـتـلـفـ القـبـائلـ عـلـىـ تـرـكـ القـتـالـ فـيـ أـرـبـعـةـ أـشـهـرـ، هـيـ الـأـشـهـرـ الـحـرـمـ، وـهـيـ ثـلـاثـةـ مـتـتـالـيـةـ: ذـوـ الـقـعـدـةـ، وـذـوـ الـحـجـةـ، وـمـحـرـمـ، وـفـيـهاـ يـؤـدـونـ مـنـاسـكـهـمـ، وـشـهـرـ رـابـعـ هـوـ رـجـبـ فـيـ وـسـطـ الـعـامـ، وـفـيـهـ يـزـورـونـ الـبـيـتـ الـحـرـامـ وـيـعـتـمـرـونـ.

ومع ذلك فقد كان الخوف مسيطرًا على جميع سكان الجزيرة لكثره الغزو والسلب والنهب، وبخاصة عندما تكون القبيلة ضعيفة، وتضطر إلى التحالف مع غيرها من القبائل القوية.

وكانوا يشعرون بسوء أحوالهم، ويترقبون ظهور نبي يخلصهم مما هم فيه من بؤس، وبخاصة أن أهل الكتاب بينهم، من يهود ونصارى، كانوا يبشرؤن بنبي اقترب وقت ظهوره.

في هذه البيئة ولد النبي محمد ﷺ، بعد وفاة أبيه بأشهر، يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول من عام الفيل، بحسب رواية ابن إسحاق، والراجح بحسب روایات أخرى أنه ولد في ليلة التاسع من ربيع الأول الموافق ٢٠ نيسان عام ٥٢٠ م.

فسرّ به جده عبد المطلب وكفله بالرعاية والحنان، ولما بلغ السادسة من عمره توفيت والدته، ثم ما لبث أن توفي جده، وهو في الثامنة من عمره، فتولى كفالته عمّه أبو طالب<sup>(١)</sup> في مجتمع أميّ، همّه كما ذكرنا التفاخر بالأنساب والفروسيّة والقتال.

وفي الخامسة والعشرين من عمره تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد<sup>(٢)</sup>.

كانت شخصية محمد ﷺ مختلفة عن أقرانه، فقد امتاز بالصدق، فلقب بالأمين، وبالإخلاص والأمانة، فاختارتة خديجة زوجاً. وبالحكمة، وظهر ذلك جلياً عندما اختير لوضع الحجر الأسود في مكانه عند إعادة بناء

(١) ابن هشام، مختصر سيرة ابن هشام، إعداد محمد عفيف الزعبي، مراجعة عبد الحميد الأحدب، دار الفتاوى، لبنان، ط١٠، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣.

الكعبة<sup>(١)</sup>، إذ وضع الحجر في ردائه، وجعل رجالاً من مختلف القبائل ينقلونه إلى حيث رفعه ووضعه في مكانه من البناء. ولم ينغمس في ملذات عصره ومباذله، بل كان يفكر بحال الشعب العربي، ويتأمل في أوضاعه، ويخلو بنفسه في غار حراء، آملاً بالفرج يأتيه من خالق هذا الكون ومسيره.

وربما ساعده زواجه من خديجة، المرأة الشريعة، على التفرغ للتأمل بدل التفكير في أعباء الحياة.

ولما بلغ الأربعين من عمره، جاءه الوحي وهو في غار حراء، ثم جاءه الأمر بتبلیغ الرسالة.

ولما انكشف أمره وبانت دعوته تصدت له قريش تحاربه وتحول بينه وبين نشر دعوته متّعة مختلف الوسائل المتاحة لها، بما فيها الإغراء، ومحاولة الاغتيال والمقاطعة الشاملة، والحصار بكافة أشكاله، وتعذيب المستضعفين من أتباعه<sup>(٢)</sup>، ومع ذلك بقي صامداً في مكة ثلاثة عشر عاماً، تهيأت له بعدها ظروف الهجرة إلى المدينة<sup>(٣)</sup>، حيث بدأ بإقامة دولته الوليدة.

ولا أظن أن قريشاً حارت مهداً بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لتسفيه عقيدتها وطعنها في أوثانها. وفي روایات تاريخية كثيرة أنها لم تكن تحترم الأصنام، وتشك

(١) مختصر سيرة ابن هشام، م.س، ص ٣٦.

(٢) ليس هنا موقع الاسترسال في هذا الموضوع، ولمن يرغب بالاستزادة مراجعة كتب السيرة المختلفة.

(٣) انظر: عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول السياسية والعسكرية، دار النفائس، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢م / ١٤٢٣هـ، ص ٤٠.

في مقدرتها على الإتيان بأي عمل... وربما هجاحها شعراً لها، كما جاء في كثير من كتب السيرة والأدب. عن أبي ذر الغفاري أو غيره أنه قال عندما كان مشركاً ورأى الشعلب يبول على رأس صنمه:

أربب يبول الشعلبان<sup>(١)</sup> برأسه      لقد ذلّ من بالت عليه الشعالب  
فلو كان ربّاً كان يمنع نفسه      فلا خير في ربّ ناته المطالب

ولكن قريشاً، وبخاصة زعماؤها، كرهوا ما جاء به الإسلام من مساواة بين الناس، وتحريم القمار والزنى، ومنع الربا، وفرض الزكاة...، أي كرهت نظاماً يحرمها ما اعتادت عليه من استغلال ونفوذ وفجور.

وهذه هي الأسباب التي يُحارب الإسلام من أجلها حتى هذا التاريخ.

ولما تمكن الرسول ﷺ من الهجرة إلى المدينة بدأ في إقامة أول دولة في الإسلام، وبدأ في الإعداد للحرب والقتال والدفاع عن العقيدة، وتهيئة ظروف انتشارها.

ولسنا بحاجة للتذكير بأن الجنود النظميين أو المتطوعة هم من أبناء الشعب، وبناءً على هذه الحقيقة يجب إعداد شخصية المواطن أولًا بشكل عام، ثم إعداد شخصية العسكري بشكل خاص.

(١) تروى الشعلبان، وهو ذكر الشعالب، والشعلبان: مثنى ثعلب.

## تكوين شخصية المسلم

المقاتلون أو العسكريون هم شريحة من شرائح المجتمع تُعدُّ إعداداً خاصاً، ولهذا يجب تهيئه شعب الدولة عقلياً ونفسياً وأخلاقياً واجتماعياً للقتال والتضحية قبل إعداده عسكرياً.

والرسول ﷺ حمل إلى المجتمع الجاهلي دعوة جديدة رفضها في بادئ الأمر، فبدأ بإعداد أتباعه لنشر الدعوة والجهاد في سبيلها.

وأهم ما حملته دعوة الإسلام، وتميزت به هو «عقيدة التوحيد»، فالخالق في الإسلام واحد أحد، لا شريك له ولا ولد، ولا مثيل أو مكافئ. على الإنسان أن يتوجه بعبادته إليه وحده، وإليه يجب اللجوء والاستعانة من دون غيره من مخلوقاته، وجاء ذلك واضحاً لا لبس فيه في القرآن الكريم في كثير من الآيات، وتلخصها سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ \* لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup>.

ولم يكن عرب الجاهلية بعيدين عن الاعتقاد بوجود الله، وكان بينهم يهود ونصارى، ولكنهم كانوا لا يقدرون الله حق قدره كما جاء في سورة الأنعام الآية (٩١): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وتركت في سورة الحج الآية (٧٤)، وفي سورة الزمر الآية (٦٧).

فكان بعضهم يدعى أن الله ولداً، وبعضهم يدعى أن له شركاء، ومعظمهم يرى ضرورة وجود وساطة بينه وبين الله من صنم أو كاهن أو غيره. فجاء الإسلام يلغى كل ذلك ويبين أن الله قريب من عباده، وأن المسلم، وغير المسلم، لا يحتاج إلى وساطة بينه وبين خالقه. وبهذا قضى على وجود

(١) الإخلاص: ١ - ٥

وسطاء بين الخالق والمخلوق من بشر أو حجر أو كوكب أو غيرها..، ونفي وجود شفاعة عنده كان يدعىها بعض الكهان ورجال الدين في الأديان الأخرى، إلا بإذنه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾<sup>(١)</sup>. وسخر من الأصنام ومن الذين يعبدونها، وبين أن الكواكب والنجوم والشمس والقمر مخلوقات كغيرها مما هو موجود في الكون، ولا سلطة لها على الإنسان، كما حدد العلاقة بين البشر، فسلطة الحاكم سلطة تنظيمية، وليس بيده شيء إلا بإرادة الله عجل.

واهتم بتوضيح حقيقة أن العمر مقدر، فلا يخلق الإنسان بارادته، ولا يمكنه ولا بشكل من الأشكال أن يحدد وقت موته، أو يعرف مكان موته، ولا طريقة موته أو سبب موته، حتى رزقه فهو مقدر من رب العالمين: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكُونُ بِغَدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولا علاقة لانتهاء الأجل والموت بالقتال ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>.  
 ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

كما جاء في الحديث الشريف عن عبد الله بن عباس قال: «كنت خلف النبي ﷺ فقال لي: (يا غلام؛ إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سالت فاسأل الله، وإذا استعن فالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) آل عمران: ١٥٤.

(٤) النساء: ٧٨.

كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف<sup>(١)</sup>.

ومن أركان الدين الإسلامي الإيمان بالأخرة، التي كان وما زال ينكرها كثيرون ﴿وَقَالُوا إِنَّهُ إِلَّا حَيَا نَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَعُوثِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، والإيمان بالبعث والحساب على الأعمال، فالله عَزَّلَ جعل الإنسان خاضعاً لمشيئته في أمور خلقه وتكوينه ورزرقه ومماته، وترك له حرية الاختيار في أعماله، فقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنَ﴾<sup>(٣)</sup>، وكثير في كثير من الآيات الحث على التفكير والنظر وإعمال العقل واتباع الخير واجتناب المعاصي، ورغبة بالجنة وما فيها من حُسن الثواب، وتوعيد الظالمين والكافرين بالنار.

وأشار في عشرات الآيات إلى المحاسبة على الأعمال في الآخرة، فقال مخاطباً رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَكِتَبِهِ وَكُنْبِيهِ وَرَسُولِهِ وَأَلْيُورِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾<sup>(٥)</sup>.

ففي هذه الآيات وآيات كثيرة غيرها نجده عَزَّلَ قرن الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر، وبين كذلك ثواب المحسنين في الآخرة فقال عز من قائل: ﴿فَعَانِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) رواه الترمذى في كتاب: صفة القيمة.

(٢) الأنعام: ٢٦.

(٣) البلد: ١٠.

(٤) الرعد: ٤٠.

(٥) النساء: ١٣٦.

(٦) آل عمران: ١٤٨.

وقال: ﴿فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَبْدًا صَلِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وكمما غرس الرسول ﷺ هذه المعتقدات في نفوس أصحابه، فقد أمرهم بالأخذ بالأسباب ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُوكُمْ إِلَى عَذَابِ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ فَيُنَتَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وعمل مع تحضيرهم عقدياً على تحضيرهم نفسياً وجسدياً. فنرى مثلاً في عبادة الصلاة أن وقت صلاة الصبح ثقيل على النفس بأن ينهض الإنسان من فراشه في وقت تميل فيه النفس إلى الاسترخاء والراحة والنوم، فيتوضأ ليصلي وحده أو مع إخوانه، ويبدأ عمله باكراً. وصلاة الجمعة تنمي في الإنسان روح الجماعة، وتعلمه الانضباط والانتظام العام، إذ يعتاد المسلم الذهاب إلى المسجد في وقت معين، ويقف مع إخوانه في صفوف متراصة، ويتبعون كلهم إماماً واحداً في ما يشبه إيعاز قائد في جنوده.

وصيام رمضان مثل آخر يتدرّب فيه الإنسان على ضبط نفسه بامتناعه عن ملذاته المباحة، وطعامه وشرابه، مدة من الزمن، ويفطر في وقت واحد مع بقية المسلمين في البلد الواحد.

وقد استغرق إعداد الشخصية المسلمة المؤمنة سنوات حتى أصبح المسلمون جاهزين نفسياً وعقدياً للجهاد، وعندما أصبحت شخصية المسلم لا تلين ولا تقهر ولا تراجع أذن للمسلمين بالقتال. وفي هذا درس على مر الأجيال، فلا يجوز الانتقال من مرحلة الإعداد إلى مرحلة القتال حتى يكتمل الإعداد ويؤمل النصر، فالإعداد واجب قبل التوكل، ولا يجوز لمسلم أن يلقى بنفسه بيده إلى التهلكة، ولا يجوز لدولة مسلمة، أو جماعة، الدخول

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) التوبة: ١٠٥.

في معركة واضحة الخسارة. فالهدف في الأصل هو النصر لا الشهادة، ولكن إن قُتل فهو شهيد له أجره، كما سنبينه في موضعه من هذه الدراسة.

ولن نتطرق هنا إلى المجتمع في ظل الإسلام الذي أمر به الله تعالى وطبقه رسوله الكريم ﷺ من اتصف بالعدل والحرية والمساواة والشورى والتعاون والتكافل والعزة والكرامة، وطلب العلم والعمل ووحدة المجتمع الإسلامي لخروجها عن موضوعنا، وسنكتفي بالإشارة إلى أخلاق الحرب عند المسلمين في مكانها المناسب من هذا البحث.

\* \* \*

## الفصل الثاني

### الإعداد العسكري



#### التشكييلات العسكرية قبل الإسلام

لم يكن لعرب الجاهلية جيوش نظامية، والذي كان يقود القبيلة ويرأسها شيخها، فإن غاب الشيخ أو الملك أناب عنه قائداً يسمونه رديفاً<sup>(١)</sup>، وكان يشتهر في كل قبيلة بعض الفرسان، فتصبح لهم مكانة خاصة في القبيلة، ولكنهم كانوا يخضعون خضوعاً تاماً لشيخ القبيلة الذي يتمتع عادةً بالحكمة وحسن الإدارة.

«وكان التدريب على القتال يتم بشكل طبيعي، ودونما حاجة إلى مؤسسة عسكرية. فحياة الصحراء، ومتطلبات الأمن والصيد تفرض إتقان استخدام السلاح، وركوب الخيل والجمال، وتنفيذ المسيرات الطويلة»<sup>(٢)</sup>.

وكان أهل الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب، ويغيّر بعضهم

(١) عنون، عبد الرؤوف، الفن الحربي في صدر الإسلام، دار المعارف، القاهرة، بلا رقم طبعة، سنة ١٩٦١م، ص٤٦. وانظر: فرج، العبرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤٣. وكاستلان، جورج، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال الدسوقي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٦٧.

(٢) الأيوبي، هيثم، الشعب المسلح، دار الشورى، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص٥٤.

على بعض<sup>(١)</sup>، ويأكل القوي منهم الضعيف<sup>(٢)</sup> على الرغم من وجود بعض الصفات النبيلة التي اقتضتها حياتهم وامتاز بها بعضهم على بعض كالشجاعة والكرم والجيرة (النجدة).

وأما الممالك التي كانت على تخوم شبه الجزيرة العربية فقد تأثرت بالدول المجاورة من روم وفرس، وأنشأت جيوشاً نظامية، حتى أن النعمان بن المنذر ملك المناذرة في الحيرة، كان له كتيبة، إحداها تسمى الشهباء، والثانية الدوسر<sup>(٣)</sup>.

وأما أسلحتهم فقد كانت أسلحة فردية غير معقدة، يستعمل كلًا منها فرد واحد، واقتصرت على السيف للقتال، والرمح للطعان، والقوس لرمي السهام. وقد امتلأت أشعارهم بوصفها، ووصف أجزائها، ويليها في الأهمية الخنجر، والدبوس، والفأس<sup>(٤)</sup>.

وكانوا يحاربون راجلين (مشاة) أو على الخيول، وأما وسائل نقلهم فكانت الإبل، والخيول، والبغال والحمير.

مما ذكرنا يتبيّن لنا أن الرسول ﷺ لم يكن بحاجة إلى إعداد أتباعه بدنياً وتدريّبهم عسكريًا إلا في حدود ضيقّة، بل كان بحاجة إلى إعدادهم عقدياً ونفسياً ليتقبّلوا القتال في سبيل الله، ويستعدوا للاستشهاد، فمكانة

(١) الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٢، بلا تاريخ، ج٣، ص٤٩٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ت: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط٣، ١٩٧١، ج١، ص٣٥٩.

(٣) عون، م.س، ص٤٤ عن الأغاني ج١، ص١٣٢. والفروسيّة لابن القيّم ص١٠٢.

(٤) للاطلاع على وصف كل سلاح يراجع: عون، عبد الرؤوف، الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص١٢٩ وما بعدها.

الشهيد في الإسلام أعلى من غيره، ومقامه في الجنة أرفع، وهذا ما فعله كما بينا في حديثنا عن شخصية المسلم. والآيات التي تأمر بالجهاد وتحرض عليه كثيرة، منها: ﴿أُلَّذِينَ مَا مَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا مَوَلَّهُمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُرُوفُ الْفَارِسِونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَلَمْ يَجْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا مَوَلَّهُمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وجعل الشهداء في جنات الخلود مع الأنبياء فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما جعل المسلمين يندفعون إلى القتال من دون خوف من الموت لأنهم يعتقدون أنهم سينتقلون من حياة زائلة إلى حياة دائمة في جنات الخلود حيث يتبوأون أسمى الدرجات.

كما جعل الرسول ﷺ ذروة سنام الإسلام الجهاد. فعن معاذ بن جبل قال من حديث طويل عن رسول الله ﷺ: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده؟) قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد...)<sup>(٤)</sup>.

وسُئل رسول الله ﷺ: أئُ الناس أفضل؟ فقال: (مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)<sup>(٥)</sup>.

(١) التوبة: ٢٠.

(٢) النساء: ٩٥.

(٣) النساء: ٦٩.

(٤) رواه أحمد والترمذى وغيرهما.

(٥) رواه البخارى في كتاب الجهاد.

وقال: (ألا أُخْبِرُكُم بِخَيْرِ النَّاسِ مِنْ لَا: رَجُلٌ آتَيْتُهُ بَعْنَانَ فَرْسَهُ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(١)</sup>).<sup>(١)</sup>

يتبيّن لنا مما ذكرناه أن القبيلة قبل الإسلام كانت هي الوحيدة العسكرية. وأن الرسول ﷺ احتاج بعد تهيئته أتباعه للقتال أن ينظمهم تنظيماً عسكرياً خارج إطار القبيلة.

---

(١) رواه مالك في كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد.

## جيش الرسول ﷺ

في البيئة التي وصفناها بدأ الرسول ﷺ بتشكيل جيشه، وتألف في بادئ الأمر من جميع المسلمين، المهاجرين والأنصار، وكان هو القائد الأعلى، ولكن هذا الجيش لم يكن كأي قبيلة أخرى، على الرغم مما يتبادر إلى الذهن من تشابه بينهما.

فالمسلمون لم يكونوا قبيلة، بل كانوا خليطاً من أهل مكة، وأهل المدينة، من مختلف القبائل والعشائر، ومن الأحرار والعبيد، الذين ساوى الإسلام بينهم جميعاً.

لقد شكل المسلمون جميعهم جيشاً واحداً يستدعي عند الحاجة، كله أو بعضه، بحسب المهمة<sup>(١)</sup>.

ولذلك فقد كانت التشكيلات العسكرية «مؤقتة» أو «آنية» وتعدادها يختلف بحسب متطلبات المهمة التي توكل إليها، ويحل تشكيلها بعد إنجازها مهمتها. ولم يصادف أن قامت مجموعة محددة (تشكيل) بقيادة واحدة بعدة مهام، إلا عندما كان يخرج المسلمون كلهم تقريباً في غزوة بقيادة الرسول ﷺ.

وكان أول تشكيل ورد في كتب السيرة، سرية مؤلفة من ثلاثين رجلاً من المهاجرين، بقيادة حمزة بن عبد المطلب، خرجت من المدينة في رمضان من السنة الأولى للهجرة، بمهمة تهديد طريق قريش التجاري بين مكة والشام<sup>(٢)</sup>،

(١) وهذا ما حاوله اليهود الصهاينة عند اغتصاب فلسطين.

(٢) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٢ ص ٤٠٥، وابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، بيروت، بلا رقم طبعة، ١٩٦٥ م، ج ٢، ص ١١٥ (أحداث السنة الأولى للهجرة)، وابن هشام، مختصر السيرة، م.س، ص ١١٥، وذكر قبلهما سرية عبيدة بن الحارث، واختلف الرواة أيهما قبل الأخرى.

ولم يقع يومها قتال بين السرية والمشركين، وحُلَّ التشكيل بعد عودة السرية من مهمتها إلى المدينة.

وكان بعدها سرية عبيدة بن الحارث، في شوال من السنة الأولى للهجرة، وتتألفت من ستين رجلاً من المهاجرين، وكان بينهم سعد بن أبي وقاص.

ثم سرية سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة، وتتألفت من عشرين رجلاً من المهاجرين<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن سعد بن أبي وقاص كان جندياً مقاتلاً في سرية عبيدة بن الحارث، وقاداً في السرية التي تلتها، وهذا يدل على عمق العقيدة التي جعلت القيادي انضباطياً مطيناً، لا يأنف أن يكون قائداً أو مقاداً.

وخرج الرسول ﷺ في غزوة ودان<sup>(٢)</sup> من صفر من السنة الثانية للهجرة على رأس جيش مؤلف من مائتي راكب وراجل، ولم يتغير عدد المقاتلين في ثلاث غزوات تالية، وهي: غزوة بواط، وغزوة ذي العشيرة، وغزوة بدر الأولى.

وفي معركة بدر (١٧ رمضان سنة ٢ هـ) تألف جيش المسلمين من ٣١٤ رجلاً<sup>(٣)</sup> بقيادة الرسول ﷺ يحملون ثلات رايات (ألوية): «لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ»<sup>(٤)</sup>.

(١) مختصر سيرة ابن هشام، م.س، ص ١١٦.

(٢) اسم موضع بين مكة والمدينة يقع إلى الجنوب الشرقي من بلدة «مستوره» المعروفة على مسافة اثنى عشر كيلومتراً. البلادي، عاتق، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣٣٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، م.س، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٠ وما بعدها، وانظر: عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول

السياسية والعسكرية، م.س، ص ٤٣.

ولدى تتبعنا حجم جيش المسلمين في زمن الرسول ﷺ نجد أنه أصبح في غزوة أحد سبعمائة مقاتل<sup>(١)</sup>.

وفي غزوة الخندق بلغ تعداد المقاتلين ثلاثة آلاف<sup>(٢)</sup>، بينما بلغ تعداد الجيش الزاحف لفتح مكة سنة ثمان للهجرة عشرة آلاف مقاتل، ويلاحظ أن تشكيلاتهم العسكرية كانت بحسب القبائل، وجاءت كالتالي<sup>(٣)</sup>:

٣٩٠٠	من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب من بنى غفار
	وبني أسلم وبني مزينة وبني سليم وبني جهينة

٦١٠٠	من بنى تميم وقيس وأسد
	<hr/>
١٠٠٠٠	

وتذكر كتب التاريخ والسير أن هذه القوات دخلت مكة في أربعة أرتال من أربعة اتجاهات، وهذا يدل على بدء وجود تشكيلات عسكرية واضحة المعالم، وإن كانت مؤقتة.

ويلفت في هذه التشكيلات توزع القيادات مع مراعاة الأوضاع القبلية، فقد عُين سعد بن عبادة، وهو من الأنصار، قائداً لأحد الأرتال، وتسلّم قيادة الأرتال الثلاثة الأخرى قرشيون مهاجرون هم: خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام. ويلاحظ أن خالداً وأبا عبيدة ظهر اسماهما لاحقاً في مختلف الحروب والفتورات، ما يدل على مدىأهليةهما للقيادة.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، م.س، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها، وانظر: عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول السياسية والعسكرية، م.س، ص ٥٨.

(٢) عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول السياسية والعسكرية، م.س، ص ١١٩.

(٣) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٤، ص ٤٢.

وكان جيش المسلمين يزداد عدداً وكفاءة مع مرور الأيام، لأن أفراد الشعب كما ذكرنا كانوا مؤهلين للقتال، ولا حاجة لتدريبهم على حمل السلاح، وركوب الخيل، وتعلم فنون القتال البسيطة في ذلك الزمان، والتي تعتمد على القوة الجسدية وفن استخدام الأسلحة الفردية المتوافرة.

ولهذا شهدنا جيش المسلمين في غزوة حنين التي تلت فتح مكة يبلغ تعداده اثنى عشر ألف مقاتل<sup>(١)</sup>.

وبما أن المجانق كانت معروفة، وليس في الجزيرة العربية من يحسن صناعتها، فقد أرسل الرسول ﷺ أفراداً إلى جرش ليتعلموا صناعتها ويعودوا لتعليم المسلمين ما تعلّموه.

وكان يبحث على تعلم الرمي بالسهام، التي كانت كالبنادق في عصرنا الحاضر، ويشجع على سباق الخيل، التي حل محلها في عصرنا الحاضر سلاح الفرسان (المدرعات)، وبلغ تعداد جيش المسلمين قبل وفاة الرسول بأقل من عامين، أي سنة ٩٦ هـ بحسب ما ورد في كتب التاريخ في غزوة تبوك ثلاثين ألف مقاتل معهم عشرة آلاف فرس<sup>(٢)</sup>.

وباختصار يتأكّد لنا من هذا السرد التاريخي الموجز أن عدد المقاتلين كان يتزايد باستمرار مع ازدياد عدد المسلمين، وأن جميع المسلمين القادرين على حمل السلاح كانوا يشكلون جيش دولة المسلمين، وأن كل مسلم كان جاهزاً للالتحاق بالخدمة العسكرية، إن للقيام بمهمة مؤقتة في سرية من السرايا أو للمشاركة في غزوة من الغزوات.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار بيروت، بيروت، بلا رقم طبعة، ١٩٨٥هـ / ١٤٠٥م، ج ٢، ص ١٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٦. وانظر: عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول السياسية والعسكرية، م.س، ص ١٤٥.

ولكن المسلمين لم يكونوا كقبيلة من القبائل، يستنفرها شيخها، فقد تغيرت الرابطة بين الأفراد، وأصبحت العقيدة والإيمان بالدين الجديد هي الرابط والداعم الرئيس للجهاد والقتال.

فقد حطم الإسلام الحدود الصلبة للقبيلة والأمة القومية، وجعل مجرد اعتناق الإنسان للإسلام، والالتزام به، كافياً للانضمام إلى الأمة المسلمة وحمل هويتها، والتحول إلى جزء من قوتها البشرية، وبالتالي إلى عنصر من عناصر قوتها المسلحة<sup>(١)</sup>.

وفي هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي، لم تتضح لنا شروط الالتحاق بالخدمة العسكرية، ولم يكن للمسلمين جيش نظامي تحت السلاح، معروف تعداده وتسلسل القيادات فيه، ووحداته ورواتب المنتسبين إليه. كان المسلمون شعباً مسلحاً يندفع فتيانه كشيوخه للمشاركة في أي مهمة قتالية، دفاعية أو هجومية، قيادته موحدة، إذ كان الرسول ﷺ يمثل القائد الأعلى، وهو يعين قادة الوحدات في كل مهمة، ويستشير من يجد فيهم الخبرة العسكرية، والرأي السديد، وأما أعطيات المقاتلين فقد كان مصدرها غنائم الحرب.

وكان المقاتل مسؤولاً عن سلاحه ومركتوبه وطعامه، يؤمّن كل ذلك على نفقةه ومسؤوليته، ولذلك كان نصيب الفارس من الغنائم أكبر من نصيب الراجل.

\* \* \*

(١) الأيوبي، الهيثم، الشعب المسلح، م.س، ص٦٦، ولا نرى استعمال «الأمة القومية» وصفاً مناسباً للعرب في العصر الجاهلي.

## الفصل الثالث

### إعداد القوات المساحة



#### تمهيد

من المعروف أن اختيار أفراد القوات المسلحة وجمعها هو أول خطوة في تنظيمها، ويتبع ذلك تبئنة العناصر في وحدات تخضع إلى التدريب الأولي ثم الاختصاصي، وبعدها تعبأ في تشكيلات مقاتلة. ويمكن تدريب ذوي الاختصاص في التشكيلات، أو في مدارس وكليات لكل اختصاص.

لكننا في بداية تشكيل أول جيش مسلم لا نستطيع تمييز أيهما بـأولاً، جمع العناصر أم تدريبيها، لأن العربي في ذلك الوقت كان مقاتلاً بطبيعته، كما ذكرنا في موضعه، وأن التدريب لم يكن معقّداً.

ولأنه لم يكن في ذلك الوقت أسلحة تتطلب طاقماً من عدّة أفراد، أو أسلحة تستدعي تدريبياً خاصاً، فإننا لا نجد ما يشير إلى هذا النوع من التدريب سوى بعث النبي ﷺ رجلين إلى جرش ليتعلما استعمال المجنانيق والدبابات والضببور وصناعتها، وعن ذلك تذكر كتب السيرة في الحديث عن حصار الطائف: «ولم يشهد حُنَيْنًا ولا حصار الطائف عمرة بن مسعود، ولا غِيلان بن سلمة، كانا بِجُرْش يتعلمان صنعة الدبابات والمجنانيق والضببور»<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن هشام، السيرة، م.س، ج٤، ص١٢١. والدبابة: آلة من آلات الحرب كانت تُصنع من الخشب، وتُغطى بالجلود، يدخل تحتها الرجال ويتقدمون حتى يصلوا إلى الحصن =

فمن نافلة القول أن التدريب يؤمّن كفاءة عالية للمقاتلين، وما يُبذل فيه من جهد وتعب ومال يوفر كثيراً من الخسائر في الحرب، وهو عادةً يشمل الأفراد والقادة على كافة المستويات ويعطي عناصر القوات المسلحة الثقة بالنفس، ويرفع الروح المعنوية لديهم، وهو يشمل مختلف النواحي النفسية والجسدية والمادية، وقد استوعبتها الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

ولا يعني إرهاب العدو استعمال هذه القوة في عمليات إرهابية بالمفهوم المعاصر، إنما تعني عندما تكونوا أقوىاء يرهب العدو قتالكم، فيحصل ما يسمى بتوازن الرعب، فيسود السلام بدل القتال لخوف كل فريق من الآخر.

وقد تحدّثنا عن الإعداد النفسي في موضوع بناء الشخصية المسلمة المؤمنة، وأما الإعداد الجسدي فيبدأ بالتدريب العسكري.

---

لينقبوه. والمنجنيق: آلة من آلات الحرب، يرمي بها الحجارة الثقيلة وغيرها على الحصن لهدمه، وهي أنواع. والضبور: في لسان العرب هي الدبابات، وربما كانت آلات حرب شبيهة بالدبابات.

وجرش: مدينة من أرض البلقاء من بلاد الشام، شمالي الأردن حالياً، كانت تابعة لدمشق، وأشار محفوظ إلى أنها المدينة التي أرسل إليها رسول الله ﷺ الصحابيين المذكورين لأنها كانت تابعة للروم، وهم متفوقون في صناعة تلك الآلات الحربية. محفوظ، اللواء محمد جمال، المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بلا رقم طبعة،

٢٢٦م، ص ٦٧٦.

(١) الأنفال: ٦٠.

## التدريب العسكري

اهتم الرسول ﷺ بالتدريب على كل ما يُعد المسلم للقتال، فجاءت أحاديث شريفة كثيرة بهذا المعنى، منها:

- (علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية)<sup>(١)</sup>.
- (لا سبق إلا في نصل أو خُف أو حافر)<sup>(٢)</sup> وهذا يدل على أنه يحضر على مباريات السباق، ويقصد بالخف الجمال، وبالحافر الخيل.
- (ألا إن القوة الرمي)<sup>(٣)</sup> أي: رمي السهام.
- (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)<sup>(٤)</sup>.
- (إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممدُّ به، فارموا واركبوا، ولأن ترموا أحَبَّ إلَيْيَّ من أَن ترکبوا)<sup>(٥)</sup>.

وتكمّلة الحديث: (كل ما يلهمو به المرء المسلم باطل إلا رمي لقوس، وتأديب فرسه، وملاعبة أهله).

- وخرج رسول الله على قوم ينتصلون بالسوق (أي: يتبارون في الرمي) فقال: (ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع

(١) أورد هذا الأثر صاحب كتاب كنز العمال عن مكحول أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أهل الشام بذلك.

وأما الرماية بشكل خاص فقد جاء الأمر بها في أحاديث صحيحة كثيرة.

(٢) رواه الترمذى في كتاب الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق. والمقصود بالخف: الجمال، وبالحافر: الخيل.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، وابن حبان.

(٥) أخرجه الترمذى في كتاب فضائل الجهاد.

بني فلان) فأمسك أحد الفريقين، فقال: (مالكم لا ترمون؟)، فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: (ارموا وأنا معكم جميعاً)<sup>(١)</sup>.

وربما كان الحديث الشريف: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير...)<sup>(٢)</sup> هو الذي يرسم الإطار العام لفرض التدريب.

ومن الملاحظ اهتمام الرسول ﷺ كثيراً بالرمي، وسبب ذلك تفوق الفرس وبراعته بالرمي، لدرجة قيل عن الرامي الماهر منهم إنه كان يصيب الكرة المقذوفة بسهامه، وفي ذلك توجيه واضح للقيادة بأن يتبيّنوا نواحي تفوق أعدائهم فيتداركونها.

وكان للروم والفرس جيوش نظامية، وكانوا يهتمون بالفروسيّة ويولونهاعناية خاصة، وهما العدوان الرئيسان المجاوران للذان سيواجههما المسلمون. ولذلك شجع الرسول ﷺ على الاهتمام بالخيل وعلى التدرب على الفروسيّة.

عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: «ليس برهان الخيل بأس، إذا دخل فيها محلل، فإن سبق أخذ السبق، وإن سُبق لم يكن عليه شيء»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيمة)<sup>(٤)</sup> الأجر والغنية.

(١) أخرجه ابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني، وروي بألفاظ مختلفة.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر.

(٣) رواه الإمام مالك في كتاب الجهاد، باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينها.

(٤) رواه الإمام مالك في كتاب الجهاد، باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينها.

النواصي: جمع ناصية، وهي مكان منبت الشعر في مقدم الرأس، أو شعر مقدم الرأس ذاته.

وعن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفباء، وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سبق بها<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الأحاديث وغيرها تشجيع وأمر بالاهتمام بالفروسية، وكل ذلك يدخل في باب الإعداد الذي أمر به الله تعالى.

وبما أن الخيل كانت وسيلة انتقال وقتال، فكل ما يقوم مقامها في العصر الحاضر من وسائل النقل والقتال مفروض التعلم على استعماله، ويدخل في باب التدريب العسكري.

### تعيين القادة

في زمن الرسول ﷺ كان هو يقوم بتعيين القادة، وكان يختار الأكفاء للقيام بالمهمة، ولا شيء غير الكفاءة العسكرية.

أخرج البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: (إنِي لاؤمِّرُ الرَّجُلَ عَلَى الْقَوْمِ فِيهِمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِّنْهُ، لَأَنَّهُ أَيْقَظَ عَيْنَاهُ وَأَبْصَرَ بِالْحَرْبِ)<sup>(٢)</sup>.

وقد بعث رسول الله ﷺ سرية فيها أبو بكر وعمر، وعَيْنَ عمرو بن العاص قائداً لها «فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو ألا ينوروا ناراً، فغضب عمر، فهمّ أن يأتيه، فنهاه أبو بكر، وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ إِلَّا لعلمه بالحرب»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الإمام مالك في كتاب الجهاد، باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينها والنفقة في الغزو. والحفباء: اسم مكان معروف، وكذلك: ثنية الوداع.

(٢) السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

وانتخب المسلمون في حياة رسول الله ﷺ قائدهم مرّة واحدة. حدث ذلك في غزوة مؤتة<sup>(١)</sup>. إذ لما بعث رسول الله ﷺ جيش مؤتة عين زيد بن حارثة قائداً لذلك الجيش، وقال: (إن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة على الناس)<sup>(٢)</sup>.

ولما التقى جيش المسلمين بجيش الروم قُتل زيد، فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة، ولم يلبث حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت بن الأرقم، فقال: يا معاشر المسلمين اصطلحوا [أي: اتفقوا] على رجل منكم، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد<sup>(٣)</sup>.

ولم نعثر على طريقة أخرى لتولية القادة في زمن رسول الله ﷺ، ولا ريب أن اعتماد الكفاءة والخبرة والمعرفة أمور ضرورية في كل عمل لنجاحه، وإلا ففشل المسؤول عن أي عمل لا يملك الصفات الضرورية لذلك العمل.

وفي القرآن الكريم توجيه واضح لاعتماد الكفاءة في اختيار القادة والشروط الواجب توافرها فيهم، فعندما طلب بنو إسرائيل من نبي لهم أن يعيّن عليهم ملكاً، اختار طالوت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعْةً مِّنِ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَهُ عَلَيْكُمْ وَرَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْحِسْنَى وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٤)</sup>، ولما كان

(١) مؤتة: قرية في جنوبى بلاد الشام.

(٢) ابن هشام، السيرة، م.س، ج٤، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٤) البقرة: ٢٤٧.

بنو إسرائيل متفرقين وفي حالة قتال مع سكان البلاد الأصليين تطلب المرحلة أن يكون القائد المختار راجح العقل سليم الجسم.

وأما في قصة موسى فقد جاء على لسان ابنة شعيب وهي تنصحه باختيار موسى ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوَىُّ الْأَمِينُ﴾<sup>(١)</sup>. فهنا لا تتطلب المهمة الخبرة العسكرية، ولكنها تتطلب الأمانة، والقدرة على العمل. وكل عمل يوكل إلى غير أهله يفسد ويفشل.

وأما سبب تغيير القادة فلا ريب بوجود عوامل عدّة كان هو يقدّرها ويُسعي إليها، منها غرس روح الانضباط والطاعة في مجتمع اعتاد أفراده الأنفة والكبرياء، فعندما يكون أحدهم قائداً في غزوة وجندياً في أخرى ويقبل ذلك بكل رحابة صدر، فذلك قمة الطاعة والانضباط. ومنها العوامل القبلية المتأصلة في العربي، ومعرفة المكلف بالمهمة بمسرح عمليات مهمته، وعوامل أخرى هو أدرى بها.

وَمِمَّا ذُكْرَنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَلْخُصَ أَسْلُوبَ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَوْلِيهِ قَادِتِهِ  
بِجَمْلَةِ وَاحِدَةٍ «الرَّجُلُ الْمُنَاسِبُ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ». وَعَلَى سَنَتِهِ سَارَ  
الْخَلْفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمَّا عَزَلَ أَبُو بَكْرَ أَبَا عَبِيدَةَ عَنْ قِيَادَةِ جَيْشِ فَتْحِ بَلَادِ  
الشَّامِ، كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَقُولُ فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي  
قَدْ وَلَّيْتُ خَالِدًا قَتَالَ الرُّومَ بِالشَّامِ، فَلَا تَخَالِفْهُ، وَاسْمَعْ لَهُ، وَأَطِعْ أَمْرَهُ،  
فَإِنِّي وَلَّيْتُهُ عَلَيْكَ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِّنْهُ، وَلَكِنْ ظَنَنتُ أَنَّ لَهُ فَطْنَةً فِي  
الْحَرْبِ لَيْسَ لَكَ». أَرَاكَ اللَّهُ سَبِيلَ الرُّشَادِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»<sup>(۲)</sup>.

(١) القصص : ٢٦.

(٢) حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٨، ٢٠٠٩م، ص ٣٩٢.

## الانضباط

يقصد بالانضباط الخضوع التام للنظام، والتقييد بالقوانين والأوامر. ويكون العسكري انضباطياً عندما تصبح الطاعة والسلوك السليم من الأمور المسلم بها، وفي جميع الظروف والأحوال، ولا يخالفها إلا عندما يؤمر بمعصية بيّنة.

ويمكن تنمية روح الانضباط في العقل عن طريق التدريب، ولا يكتمل إلا «إذا فعل المرء ما يعرف أو يعتقد أنه صحيح، حتى في غيبة الأوامر أو الرقابة، وأن يحافظ على الطاعة والسلوك السليم في جميع الظروف وفي ظل العوامل والمؤثرات والضغوط المختلفة»<sup>(١)</sup>.

ولئن كانت التربية العسكرية تعتمد أول ما تعتمد على انضباط «حازم وعادل دائم»<sup>(٢)</sup> يتطور ليصبح عادة، ثم يتحول إلى تذوق، فإن الانضباط يفقد جدواه إذا أدى إلى تحطيم شخصيات المرؤوسين وإضعافها، لأن النصر لا يتحقق بأناس فاقدون العزة والكرامة، ضعيفي الروح المعنوية، لهذا نجد الإسلام يقوى عزائم المؤمنين، فيقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويدعو رسوله مسجعاً: ﴿يَأَيُّهَا أَلَّيْهِ حَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَدِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) محفوظ، محمد جمال الدين، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية،

م.س، ص ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المناقون: ٨.

(٤) الأنفال: ٦٥.

وبما أن الذي يؤدي عملاً جيداً ابتغاء مرضاه الناس وثنائهم لا يؤديه حيث لا يراه الناس، وكذلك الذي يتقييد بالأنظمة والقوانين خوفاً من العقاب، يعمل على هواه مخالفًا للأنظمة والأوامر إذا ما انتفت مراقبة الناس، أو غاب الساهر على تنفيذ القوانين والأوامر. لذلك نجد الانضباط في الإسلام، أو انضباط العسكري المسلم يعتمد على الواجب الديني أولاً، فحيث تغيب رقابة السلطة، ورؤيه الناس، لا تغيب رؤية الله تعالى ورقابته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾<sup>(١)</sup>. ويقول الرسول ﷺ عندما سُئل عن الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)<sup>(٢)</sup>.

والطاعة في الإسلام ليست خصوصاً للقائد لأنه يمثل سلطة، بل لأن في ذلك الخضوع ضرورة اجتماعية للصالح العام، كضرورة وجود قيادة لتنظيم المجتمع، والله تعالى يقول في هذا المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولُو الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، ويؤكد على ذلك في عدد من الآيات التي تأمر بالطاعة وتحض عليها. وليس من أولي الأمر مغتصبو السلطة، ولا المستعمرون كما يظن بسطاء الناس والرعا.

والرسول ﷺ يقول: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمنوا أحدهم)<sup>(٤)</sup>، ويبحث على طاعة الرؤساء بقوله: (اسمعوا وأطعوا وإن استعمل عليكم عبد

(١) النساء: ١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، وابن ماجه، والنسائي، ونصه في رواية: (إنك إن لا تراه فإنه يراك).

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يومرون أحدهم، وفي رواية: (إذا كان ثلاثة...).

حبشي كأن رأسه زبيبة)<sup>(١)</sup>، ولكن هذه الطاعة مقيدة بأن لا تتعدي الأوامر الاستطاعية، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(٢)</sup>. وأن لا تخالف الشريعة، لأن القاعدة العامة: (لا طاعة لមخلوق في معصية الخالق)<sup>(٣)</sup>.

أما العلاقة الشخصية بين أصحاب الرتب ومرؤوسيهم فضابطها الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

وهكذا نرى أن العامل الأول والأهم في الطاعة هو التقوى، ولكن كثيراً من المرؤوسيين لا تجدي معهم ولا تؤثر بهم الأوامر الدينية، ولذلك لا بد من خصوص المرؤوسيين لرقابة دائمة وصارمة، فالقول المأثور: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» هو قول سليم فيه عبرة كبيرة، وهو مستخلص من مضمون القرآن الكريم الذي يتحدث عن الثواب ولا يهمل الحديث عن العقاب والتحذير من النار، فالثواب والعقاب ضروريان لانتظام العمل في القوات المسلحة كما هما ضروريان لانتظام أي مجتمع.

ومن تمام انضباط العسكري الاهتمام بالنظافة والمظهر الخارجي، ويختلط من يظن أن الإسلام لا يهتم بهذه الأمور، إذ نجد في العبادات حثاً على النظافة والطهارة وحتى الأمر بالزينة، يقول الله تعالى: ﴿يَبْعَثُ إِادَمَ خُذُوا زِينَتُكُمْ عِنْدَكُلِّ مَسْجِدٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه البخاري وابن ماجه.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

(٣) رواه الألباني في صحيح الجامع.

(٤) الحجرات: ١٠.

(٥) الأعراف: ٣١.

وجعل الوضوء شرطاً للصلوة، وفي الوضوء ما لا يخفى من النظافة. كما كان الرسول ﷺ يأمر بتشذيب اللحى، والاهتمام باللباس، وبنظيف الأسنان (لولا أن أشقت على أمتي لأمرتهم بالسوالك عند كل صلاة)<sup>(١)</sup>، وكان ينني على الذين يهتمون بالظهور بالمظهر اللائق والهندام الأنبيق.

عن زيد بن أسلم، أن عطاء بن يسار أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله بيده أن اخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: (أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان)<sup>(٢)</sup>.

وكذلك لا يخفى ما في الصلاة من تدريب على الانضباط ابتداءً من الالتزام بأوقات محددة لأدائها، مروراً بحركاتها وتسوية صفوف صلاة الجماعة، وقيادتها من قبل إمام يتبعه المؤتمون به، وانتهاءً بتكرارها خمس مرات في اليوم حتى تصبح عادة.

ولهذا نجد قائد جيش الفرس «رسم» عندما كان ينظر إلى المسلمين وقد اصطفوا للصلوة بخشوع وهدوء وانتظام يقول: «أكل عمر كبدى، يعلم الكلاب الآداب»<sup>(٣)</sup>.

وكذلك لا يخفى ما في الصيام من ضبط للنفس، وتعويذ على تحمل الجوع والعطش، وغير ذلك من مشاق الصيام المعروفة.

(١) رواه البخاري، والترمذى في كتاب الطهارة، باب ما جاء في السواك وغيرهما.

(٢) مالك، الموطأ، م.س، كتاب الشعر، باب إصلاح الشعر. وثائر: أي أشعث.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، مكتبة المدرسة والكتاب اللبناني، بيروت، ط٣، ١٩٦٧م، ص٢٦٨.

## الإِعْدَادُ النُّفْسِيُّ

إن حب الحياة أحد الغرائز الأساسية التي جُبل عليها الإنسان، ولو لا التعلق بالحياة الدنيا لانقرض الجنس البشري، وهذا منافٍ لسفن الخلق، ولذلك يحتاج الإنسان للتضحية بحياته إلى تهيئة عقلية وعاطفية، بل «حالة إيمانية تجعله شجاعاً مقداماً مستعداً للتضحية بحياته في سبيل ما يؤمن به تحت أية ضغوط وفي مختلف الظروف.

ويدرس الكتاب العسكريون عادةً هذا الموضوع تحت عنوان «الروح المعنوية» التي يعرّفونها بأنها: الحالة العقلية للفرد في وقت معين وتحت تأثير ظروف معينة، فالفرد تحت ظروف معينة قد نجده شجاعاً قوياً ممتلئاً بالحماسة، وفي وقت آخر نجده مترددًا<sup>(١)</sup>.

ولعله من الأفضل أن نعدل التعريف فنقول: «الحالة العقلية والعاطفية، أو الحالة الفكرية الوجدانية...».

وفي دراسة الإعداد النفسي للمقاتل المسلم لا بد لنا من أن نتناوله بالبحث تحت عنوان «الجهاد»، بمعنى «قتال العدو»، فللجهاد معانٍ شتى يخرج التوسع فيها عن مضمون بحثنا<sup>(٢)</sup>.

فالجهاد بهذا المعنى ركن من أركان العقيدة الإسلامية التي تُعد مصدر الروح المعنوية العالية للمسلمين<sup>(٣)</sup> التي طبعت المسلم بالأتي:

(١) محفوظ، م.س، ص ٢٥١.

(٢) للتوسيع في موضوع الجهاد انظر: القاسمي، ظافر، الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، دار العلم للملائين، بيروت، ط ١، ١٩٨٢ م.

(٣) وتر، محمد ضاهر، الإداره العسكرية في حروب الرسول ﷺ، مطبعة الرشيد، حلب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٨.

١ - التحرر والانعتاق من خوف الموت ؛ لأن الأجل مكتوب: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِبَارًا مُّؤَجَّلًا﴾<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلَهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

ولأن قناعة المسلم بأن الموت ليس نهاية الحياة، بل هو انتقال من حياة الدنيا المحدودة إلى حياة الآخرة الأبدية، وهي للMuslim أفضل من حياة الدنيا، ولذلك فإن شدة الإيمان تجعل المسلم في حالة شوق إلى تلك الحياة، أو على الأقل يتحرر من خوف الموت المفضي إلى حياة الآخرة.  
 ﴿وَلَا تَحْسَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهذا الإيمان هو الذي جعل المقاتلين المسلمين كما يصفهم القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا رَأَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾<sup>(٤)</sup>.

هكذا كانت الحالة المعنوية لجيوش المسلمين في سنوات الفتح، وهذا ما جعل خالد بن الوليد يكتب إلى بعض من أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإسلام أو الخضوع لسلطان الدولة الإسلامية ودفع الجزية، فيقول: «إِنْ أَبَيْتُمْ فَإِنِّي قَدْ جَنِّبْتُمْ بَقْوَةً يُحِبُّونَ الْمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ»<sup>(٥)</sup>.

وقد اعتمد الرسول ﷺ في إعداد المسلمين نفسياً للقتال ورفع روحهم المعنوية على القرآن الكريم، وعلى تشجيعه الشخصي بأحاديثه الشريفة،

(١) آل عمران: ١٤٥.

(٢) المنافقون: ١١.

(٣) آل عمران: ١٦٩.

(٤) الأحزاب: ٢٢.

(٥) القاسمي، الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، م.س، ص ٦٩.

وعلى ضرب المثل الأعلى وتجسيد القدوة الصالحة. فعندما نتحدث عن القرآن الكريم، وأنه أفضل وسيلة لتنمية الروح المعنوية وبعث فكرة الجهاد عند المسلمين فإننا نغالط أنفسنا إن لم تُعرِّفْ أهمية كبرى لضرورة القائد المثالي الذي يستطيع ترسیخ مفاهيم الآيات في عقول أتباعه، ويؤثر في عواطفهم، ويضرب المثل الأعلى بنفسه، ويكون قدوة لهم. فالقرآن لا يزال كما هو بين دفتي المصحف، ويتلئ في جميع المناسبات ولا نتلمس له أثراً، حتى أن شعار «الله أكبر» فقد مدلوله عند كثير من المسلمين، وأصبح عندهم كثير من خلق الله أكبر.

لقد بيَّنَ القرآن الكريم أن الاعتقاد بأن موطن الموت هو المعركة اعتقاد خاطئ، فلا ارتباط بين الموت والمعركة، والموت له ساعته لا تتقدم ولا تتأخر<sup>(١)</sup>.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكُونُ سِبُّ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك فإن غاية القتال هي النصر، لا السعي إلى الموت، والنصر مطلوب عقلاً ونقلأً، وإلا انتهى الإسلام بسعى أتباعه إلى الموت، ولكن إن قُتل المسلم وهو يقاتل لإعلاء كلمة الله ونصرة المستضعفين وتحقيق العدالة على الأرض فهو شهيد، وله أجر الشهداء الذي لا يماثله أجر.

(١) أبو شريعة، د. إسماعيل، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ١٤٧.

(٢) النحل: ٦١.

(٣) لقمان: ٣٤.

## أجر الشهيد

لم يكتف الإسلام برفع مكانة المجاهدين في سبيل الله في الدنيا والآخرة فحسب، بل جعل لمن يُقتل في سبيل الله أجرًا يتمنى كل مؤمن أن يظفر به، يقول عزّ من قائل: ﴿وَلَئِنْ قُتِلُتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمَ لِمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً حَيْثُ مَمَّا يَجْعَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

ويقول: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿فَلَيُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَأْتِي لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وهذا الأجر الذي تتحدث عنه الآيات الكريمة جعل المقاتلين المؤمنين يقدمون على القتال مطمئنين غير وجلين ولا خائفين، بل مستبشرين بوعده الله ورسوله ﷺ، وكما وصفهم الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَهُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾<sup>(٥)</sup>.

وهذه صورة من صور المقاتلين المسلمين، عن يحيى بن سعيد «أن رسول الله ﷺ رغب في الجهاد، وذكر الجنة ورجل من الأنصار يأكل تمرات

(١) آل عمران: ١٥٧.

(٢) آل عمران: ١٦٩.

(٣) النساء: ٧٤.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) الأحزاب: ٢٢.

[هو عمير بن الحمام] في يده فقال: إني حريص على الدنيا إن جلستُ حتى أفرغ منها، فرمى ما في يده، فحمل بسيفه فقاتل حتى قُتل»<sup>(١)</sup>.

وهكذا، فإن الإيمان الراسخ بوعد الله ووعد رسوله جعل المقاتلين المسلمين يتمتعون بروح معنوية عالية لا تتزعزع، راسخة كالجبل، شامخة كالقمم، ونفوس مطمئنة صابرة كما يقول الله تعالى في وصفهم: «الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ أَنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوكُمْ لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمَ الْوَكِيلُ ● فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ»<sup>(٢)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ قدوة المسلمين في قتالهم الأعداء، يتقدم أمامهم، ويحثّهم على القتال بأقواله وأحاديثه الشريفة، مؤكداً أجر الشهيد الذي ورد في الآيات الكريمة في هذا المعنى، ومن أقواله:

(مَنْ اغْبَرَتْ قَدْمَاهُ لِلْجَهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَمَ اللَّهُ سَائِرَ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ)<sup>(٣)</sup>.

«قيل: يا رسول الله: أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي ذر قال: «قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله»<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد.

(٢) آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط.

(٤) رواه البخاري في الصحيح.

(٥) متفق عليه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا للجهاد في سبيله وتصديق كلماته، أن يدخله الجنة، أو يرده إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من الأجر والغنية) <sup>(١)</sup>.

وعنه قال: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم، الذي لا يفتُر من صلاة ولا صيام حتى يرجع) <sup>(٢)</sup>.

وعنه أيضاً قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يكلم أحداً في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيمة [وجهه يتَّعب دماً] اللون لون دم، والريح ريح مسك) <sup>(٣)</sup>.

وكان تذكير الرسول ﷺ المؤمنين المجاهدين في سبيل الله بأجر الشهيد قبيل المعركة وأثناءها يترك في النفوس أثراً عجياً، حتى إنه في غزوة أحد لما قال: (والذي نفس محمد لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة) رمى أحد الصحابة تمرات كانت بيده - كما ذكرنا آنفاً -، وسارع إلى المعركة يسابق الوقت ليظفر سريعاً بالجنة.

ومن الأمور المهمة في القتال أن يثق المقاتلون بالنصر، وإن سقط شهداء كثُر، فسيسعد الناجون بما تحقق من نصر، وسيسعد الشهداء بما فازوا به من الشهادة.

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد.

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد.

(٣) راوه البخاري بحذف ما بين المعقوفتين، وأضافها الزبيدي، وأخرجه النسائي والترمذى بآلفاظ متشابهة. ويُكلِّم: أي يُجرح.

## الألوية والرايات والأعلام

لم يميز معظم المؤرخين القدماء بين العلم والراية واللواء. وجاء في لسان العرب: العلم: الراية التي تجتمع إليها الجنود. وقيل هو الذي يعقد على الرمح. واللواء: العلم. واللواء: الراية، ولا يمسكها إلا صاحب الجيش... موضوع اللواء: شهرة مكان الرئيس.

وفي هذه الأيام نرى بعض حجاج المناطق يؤدون مناسكهم جماعات، ونظراً لكثرة الزحام يرفع أحد أفراد الجماعة على عصا قطعة قماش مميزة، يراها أفراد الجماعة من بعيد فيهرعون إليها، ولا يضيع بعضهم عن بعض. وأظن أن أصل الراية وغرضها يشبه هذا الغرض، فقد كان لكل قبيلة في الجاهلية لواء ترفعه في الحرب والغزو، وكان لقريش راية اسمها العُقاب<sup>(١)</sup>، اقتبستها عن الروم الذين كان شعارهم آنذاك النسر أو العُقاب.

و سنقصر حديثنا عن الألوية والرايات<sup>(٢)</sup> بمقدار ارتباطها بالتشكيلات العسكرية فحسب. فقد ورد ما يدل عليها في كتب التاريخ المختلفة وكتب السيرة بألفاظ مختلفة، ومن أمثلة ذلك ما جاء في سيرة ابن هشام وذكره الواقدي والطبراني «أول لواء عقده رسول الله ﷺ بعد أن قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب»<sup>(٣)</sup>.

(١) زكي، القائمقام أحمد، السلاح في الإسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة، بلا رقم وتاريخ، ص ٥١.

(٢) اللواء والراية كلمتان متراهما تقربياً، ولكنني أميل إلى أن اللواء أكبر من الراية وأهم، وهذا ما يراه صاحب كتاب «فن الحرب في صدر الإسلام» إذ يشير إلى أن اللواء يُعقد لأمير الجيش، بينما تُعقد الراية لأمراء القبائل أو التشكيلات ضمن الجيش. عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص ٨٣.

(٣) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، كتاب المغازى، تحقيق د. مارسل جونس، دار عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤ هـ / ١٤٠٤ م، ج ١، ص ٩.

وذكر الطبرى أنه في السنة الأولى للهجرة «عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص إلى الخرار لواء أبيض يحمله المقداد بن عمرو»<sup>(١)</sup>. ومن هذا نستدل على أن حامل اللواء لا يشترط أن يكون هو قائد التشكيل العسكري، ويلفتنا لون اللواء الأبيض.

فإذا انتقلنا إلى غزوة بدر نجد أن جيش المسلمين تجاوز عدده ثلاثة مئات (٣١٣). وكان المهاجرون سبعة وسبعين رجلاً (٧٧)، والأنصار مئتين وستة وثلاثين رجلاً (٢٣٦).

«وكان صاحب راية رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ؓ، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة»<sup>(٢)</sup>، وحمل مصعب بن عمير راية ثلاثة.

أي حمل الجيش ثلاث رايات: راية المهاجرين، وراية الأنصار، وراية أو لواء الجيش، وأظنه الذي كان يحمله مصعب بن عمير.

فإذا تتبعنا تطور جيش المسلمين من خلال الأولية والرايات، التي يذكرها مؤلفو كتب التاريخ، نجد بعضهم كالواقدي في حديثه عن جيش فتح مكة، وهو يمثّل أمام أبي سفيان المحجوز عند مدخل الوادي المؤدي إلى مكة، يقول: «ومررت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها، فكان أول من قدم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فيبني سليم، وهم ألف، فيهم لواء يحمله عباس بن ميرداد السليمي، ولواء يحمله خفاف بن ندبة، وراية

= وفي الطبرى: «كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين» الطبرى، التاريخ، م.س، ج٢، ص٤٠٥. وفي هذا تأكيد عدم التمييز بين الراية واللواء عند كثير من المؤرخين.

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج٢، ص٤٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣١.

يحملها الحجاج بن علّاط... ثم مرّ على إثره الزبير بن العوام في خمسمئة منهم مهاجرون وأفباء العرب، ومعه راية سوداء... ومرّ بنو غفار في ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر الغفارى... ثم مضت أسلم في أربعين مائة فيها لواءان... ثم مرّت بنو عمرو بن كعب في خمسمائه، يحمل رايتهم بسر بن سفيان... ثم مرّت مُزينة في ألف فيها ثلاثة أولوية... ثم مرّت جهينة في ثمانين مائة مع قادتها، فيها أربعة أولوية...»<sup>(١)</sup>، حتى إذا مرّت كتبية رسول الله ﷺ ف قال العباس: «هذا رسول الله ﷺ في كتبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، فيها الرایات والألوية، مع كل بطن من الأنصار راية ولواء... ويقال: كان في الكتبة ألف دارع، وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عبادة...»<sup>(٢)</sup>، ثم يتحدث الواقدي عن عزل سعد بن عبادة، ويقول: «عزله، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد»<sup>(٣)</sup>.

وذكر ابن هشام: «قال ابن إسحاق: ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار... وقال ابن هشام: وكان أبيض، قال ابن إسحق: وكان أمّام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، ويقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار»<sup>(٤)</sup>.

وبذلك يكون للجيش لواء أبيض ورايتان سوداوان، ولم نتبين من الرایات ما يميز الواحدة من الأخرى، وإن كنا نستطيع أن نجزم بوجود اختلاف يميّز بينهما، وبخاصة أن لإحداهما اسم عُرفت به هو «العقاب».

(١) الواقدي، المعازى، م.س، ج ٢، ص ٨٢١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٢٢.

(٤) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٢، ص ٢٦٤.

ونستطيع كذلك أن نستنتج من قوله في أول النص المقتبس عنبني سليم: «فيهم لواء يحمله عباس... ولواء يحمله خفاف... وراية يحملها الحجاج» أنه يفرق بين اللواء والراية، بينما في آخر النص يقول عن سعد: «فعزله وجعل اللواء إلى قيس بن سعد»، وكان قد سمي العلم الذي يحمله سعد «راية»، والأغلب أن ما ذكرناه سابقاً من أن اللواء أكبر من الراية هو الصحيح، ولكن كبر بعض الرايات جعلهم يسمّون بعض الرايات الألوية.

وليس ما يهمنا الاستفاضة في موضوع الألوية والرايات، بل ما يهمنا هو التشكيلات العسكرية. والملاحظ أن التشكيلات لم تكن متساوية أو متقاربة في العدد، بل هي مرتبطة بعدد المقاتلين في كل قبيلة، فعندما يكون تعداد المقاتلين كبيراً تُقسم إلى عشائر، وتحمل أكثر من راية، أما عندما يكون صغيراً فتحمل راية واحدة. وربما كانت القبيلة متوسطة الحجم ولكنها تضم أكثر من قسم يتميز أحدهما عن الآخر.

وهذه التشكيلات شبه دائمة، لأن كل قبيلة تستنفر حول رايتها، لكنها لم تعد تجتمع تحت لواء رئيسها كما كان الأمر في الجاهلية، بل تحت قيادة قائد يعيّنه الرسول ﷺ.

كما كانت تنشأاً منذ بدء الهجرة تشكيلات مؤقتة مختلطة، كالسرايا التي ذكرناها، والتي كانت تُكلّف بمهمة معينة وتُحلّ بانتهاء مهمتها. وكانت تظهر هذه التشكيلات بشكل أوضح كلما تقدم الإسلام وانتشر، مع المحافظة على التشكيلات القبلية، وإنشاء تشكيلات مختلطة، فعندما أراد أبو بكر أن يوجه جيشاً لفتح بلاد الشام، وبعد أن جاءت

قبائل اليمن «كان أول من دعاه أبو بكر يزيد بن أبي سفيان، وعقد له راية وأمّره على ألف فارس من سائر الناس»<sup>(١)</sup>. وهذه الأمثلة تدل على ظهور التشكيلات المختلطة غير القبلية مبكرة في تاريخ الإسلام ومتراقة مع التشكيلات القبلية.

### المعسكرات

بقي حال جيوش المسلمين كما ذكرنا، لا معسكرات دائمة لهم، حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو لما رأى أن تعداد جيشه المنتشرة في بلاد الشام، وما بين النهرين، ومصر، بلغت عشرات الآلاف، وهي غريبة في أماكن وجودها، تواجه مشكلة الاختلاط بمجتمعات غير مسلمة، أو حديثة الإسلام، خاف عليها عوائق الاختلاط بهذه المجتمعات، وأراد أن يحتفظ بجنوده كتلاً واحدة متمسكة، فأمر بإنشاء معسكرات خاصة بالجند، وكانت هذه المعسكرات أقرب إلى المدن منها إلى المعسكرات الخاصة بالجنود، إذ كان يقيم فيها الجنود وعائلاتهم. وقد أطلقوا على المعسكرات المواجهة للعدو أو على الشواطئ تسمية التغور، والذين يقيمون فيها ويدافعون عنها «مرابطين»، وكان بعضها نقاطاً عسكرية كانت لأعدائهم من فرس أو روم، فرمموها، وأدخلوا عليها التحسينات الملائمة لهم، وملؤوها بالجند والأعتدة. ومنها ما اختار أمكنتها القادة العسكريون في المناطق فخططوها كما يشاؤون، ثم استقروا فيها، وطوروها مع تقدم الأيام. ومما بناه القادة المسلمين:

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ص.٨.

## البصرة

بنها عتبة بن غزوان سنة ١٤هـ على شط العرب<sup>(١)</sup>، وكان الباعث على إنشائها حاجة العرب إلى نقطة عسكرية تكون معقلًا لجيوشهم عقب انتصارهم في القادسية<sup>(٢)</sup>.

وقد استشار عقبة الخليفة قبل اختيار المكان والبدء بالعمل بشكلٍ نهائٍ، فكتب إليه عمر: «اجمع أصحابك في موضع واحد، ول يكن قريباً من الماء والمراعي، واكتب إلى بصفته»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فقد كان الخليفة يشرف على أعمال قواده، بصفته القائد الأعلى، ويعطي توجيهاته، وكانوا هم يتقيدون بها، حتى إن القائد عتبة لم يبدأ العمل في المكان الذي اختاره إلا بعد أن وصف المكان للخليفة عمر، وبعد أخذ موافقته بدأ العمل في بناء المعسكر.

وكان في المنطقة معسكر فارسي، فرممه، واستعملوه، ثم بناوا المعسكر الجديد، وابتدأوا ببناء مسجد كما فعل الرسول ﷺ عند قدومه المدينة، ثم مقر الإمارة (القائد)، ثم تقاسموا جهات المعسكر، فاختصت كل قبيلة بمكان خاص بها، لأن القبيلة كانت حتى ذلك التاريخ وفي معظم الحالات تشكل وحدة قتالية كما أسلفنا.

(١) ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، مطبعة بغداد جدي حسن باشا، بغداد، بلا رقم طبعة، ١٩٣٩هـ/١٣٥٨م، ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق د. عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، بلا رقم للطبعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤٨٣.

وكانت المنازل والمساكن التي بناها من قصب، فإذا غزوا نزعوا القصب ووضعوه في مكان مناسب، حتى إذا رجعوا من الغزو أعادوا البناء. ولم تزل الحال كذلك حتى بني الناس المنازل باللّيْن والطين<sup>(١)</sup>.

## الكوفة

في سنة ١٧هـ كتب الخليفة عمر إلى سعد بن أبي وقاص قائد جبهة فارس، يأمره بأن ينشئ للمسلمين مقرًا، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً<sup>(٢)</sup>، فاختار سعد بعد دراسة المنطقة، موقع الكوفة، فوضع لها مخططاً، وبنى مسجداً وداراً للإماراة، وأنزل كل قبيلة منزلة. ولما كان الطرف الشرقي في ذلك الموقع أفضل من الطرف الغربي أقرع عليه، فجاء من نصيب أهل اليمن. وفي هذا التصرف درس وعبر، فهو لم يفضل عشيرته، ولا أقاربه، لأن العدل أساس الملك، وهو أفضل ما يتمتع به القائد الناجح.

وفي رواية للبلاذري: أن أهل اليمن كانوا اثني عشر ألفاً، وقبيلة نزار ثمانية آلاف<sup>(٣)</sup>.

ومن طريف ما يروى أن «سبب إلقاء الحصى في مسجد الكوفة، وفي مسجد البصرة، أن الناس كانوا يصلون، وإذا رفعوا أيديهم وقد تربت نفطوها، فقال زياد [أميرهم لاحقاً]: ما أخواني أن يظن الناس على غابر الأيام أن نفض الأيدي سُنة في الصلاة. فزاد في المسجد ووسّعه، وأمر بالحصى تُجمع، وأُلقيت في صحن المسجد، أي رُصفت بها أرض المسجد»<sup>(٤)</sup>.

(١) البلاذري، فتوح البلدان، م.س، ص ٤٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

(٤) المصدر نفسه.

## الفسطاط

بعد فتح الإسكندرية سنة ٢٠ هـ كتب عمرو بن العاص فاتح مصر إلى الخليفة عمر يستأذنه في سكنها، فأجابه جواب عسكري عبقري بصير في شؤون السياسة وال الحرب: «لا تنزل بال المسلمين منزلًا يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر»<sup>(١)</sup>.

و كانت هذه الرسالة تمثل قاعدة أساسية في مذهب عمر العسكري. ومن القواعد الأساسية في هذا المذهب اتخاذ المسلمين من الباذية ملجأ لهم إن لم يكن النصر حليفهم، أو ضيق العدو عليهم و اضطررهم إلى الانسحاب.

ويظهر لنا جلياً من تحرّكات القائد المثنى بن حارثة الشيباني، الذي استمر يقاتل الفرس سنوات، فإذا ضيقوا عليه التّجّأ إلى الباذية، و نصّح في وصيته سعد بن أبي وقاص باتباع خطّته<sup>(٢)</sup>.

فشاور عمرو أصحابه، فأشاروا عليه بموضع الفسطاط لأنّه على ماء و صحراء، ولا يحول الماء بينه وبين عاصمة المسلمين في المدينة، وأما سبب التسمية ففيه أقوال كثيرة لا يهم البحث سردها، وربما يعود لبناء عمرو فسطاطه بالقرب من حصن بابليون في ذلك المكان، وكعادة المسلمين أينما حلوا بدأ ببناء جامع كبير مهيب ثم بني دار الإمارة، أسوة بما فعله الرسول ﷺ عندما قدم المدينة.

وقد كلف عمرو بن العاص قادته، فأشرفوا على إزالة القبائل منازلها في الموقع الجديد.

(١) الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، بلا رقم طبعة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج ٤، ص ٢٦٣.

(٢) ثابت، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ٢٤.

وبيدو أن الموقع اكتشفه الفراعنة والرومان وفيه حصن بابليون. وموقع المدينة على الساحل الشمالي الشرقي للنيل على بعد ثلاثة كيلومترات قبل القاهرة على النيل الذي يقع إلى غربها.

### أنطاكيا وقرقيسية

أنطاكيا حالياً بلدة في شمالي بلاد الشام على البحر الأبيض المتوسط تتبع لتركيا، حاصرها أبو عبيدة بن الجراح بعد فتح حلب، وصالحه أهلها على الجزية، ثم نقضوا العهد، فوجّه إليهم عياض بن غنم ففتحها على الصلح الأول، ويقال إنهم نقضوا العهد مرة ثانية، وأعيد فتحها، «ثم انتقل إليها قوم من أهل حمص وبعلبك مرابطة»<sup>(١)</sup>.

وشكلت أحد الثغور ومكاناً للمرابطين، وهي كانت قائمة قبل فتحها ولم يبنها المسلمون.

وأما قرقيسية فهي قرية على مثلث بين الخابور والفرات عند مصب الأول في الثاني. ففتحها حبيب بن مسلمة الفهري، أحد قادة عياض بن غنم في الجزيرة سنة ١٩هـ وسكنها المسلمون، وشكلت ثغراً من الثغور ولم يبنها المسلمون.

\* \* \*

(١) الحموي، معجم البلدان، م.س، ج ١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

## الفصل الرابع

# التجنيد في صدر الإسلام



### شروط التجنيد

لم تتجاوز شروط التجنيد بلوغ المسلم سن الرجال وتمكنه من القتال. فقد أجاز رسول الله ﷺ لرافع بن خديج أن يشارك في القتال في غزوة أحد، وهو صبي ابن خمس عشرة سنة لما قيل له إنه يُحسن الرمي... ولما أخبروه أن سمرة بن جندب الفزاري يصرع رافعاً سمح له أيضاً، ورداً أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وغيرهما لصغر سنّهما. أما في غزوة الخندق فقد ألحقهم بالمقاتلين إذ بلغا خمس عشرة سنة<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا اعتمد المسلمون لاحقاً، فجعلوا الحد الأدنى للتجنيد خمسة عشر عاماً، وهذا ما أشار إليه العجلاني فقال: «وفي زمن عمر بن عبد العزيز جعلوا الحد الأدنى لسن الجندي خمسة عشر عاماً لما روى لهم من أن ابن عمر كانت هذه سنّه لما اكتب في بعث من بعوث رسول الله ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

**أما ذوي العاهات والذين لا يتمتعون باللياقة البدنية فقد أُغفوا من**

(١) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٣، ص ٧٠.

(٢) العجلاني، منير، عقريبة الإسلام في أصول الحكم، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨هـ / ١٩٠٤م، ص ٢٤٠.

القتال «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَنِ حَجَّ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَجَّ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَجَّ وَمَن يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتِنَّ بَحْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ مِنْهُ عَذَابًا أَلِيمًا»<sup>(١)</sup>.

### الزامية التجنيد

اختلف الباحثون في الشؤون العسكرية عند المسلمين في إلزامية التجنيد في الإسلام<sup>(٢)</sup>، ومتي بدأ تطبيق «التجنيد الإجباري» عندهم<sup>(٣)</sup>، ما يدفع الباحث إلى محاولة استجلاء حقيقة الأمر، وهذا يقودنا إلى طريقة استئثار المسلمين الأوائل للقتال، وتتبّع أحوال المقاتلين في مختلف العصور.

ففي زمن رسول الله ﷺ كان المسلمين يندفعون إلى القتال من دون تردد، صغيرهم وكبيرهم، لأن دافعهم إلى القتال نفسي داخلية جوانية، ينطلق من الإيمان الراسخ في نفوسهم للقتال في سبيل الله والإعلاء كلامته. وكان الرسول يمنع الصغار منهم المشاركة في القتال، وتروي كتب السيرة - كما ذكرنا آنفاً - أنه رد في غزوة أحد سمرة بن جندب الفزارى، ورافع بن خديج، فقيل له: إن رافعاً راماً، فسمح له بالمشاركة في القتال، ثم سمح لسمرة عندما قيل له أن سمرة يصرع رافعاً<sup>(٤)</sup>، وكانا في الخامسة عشرة، وعلى هذا اعتمد الفقهاء لاحقاً في تحديد سن التجنيد.

(١) الفتح: ١٧.

(٢) عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص ٩٠.

(٣) يرى جرجي زيدان أن «التجنيد الإجباري» فكرة إسلامية خالصة، وأن الحجاج بن يوسف التقي والمالي عبد الملك بن مروان على العراق، هو أول من طبق ما يشبه التجنيد الإلزامي. [زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، بلا رقم طبعة وتاريخ، ج ١، ص ١٦٣].

(٤) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٣، ص ٧٠.

ولكن ذلك لا ينفي وجود متخاذلين أو متخلفين في صفوف المسلمين نفاقاً، أو خوفاً وجيناً، أو تهاوناً. فما كان موقف السلطة المتمثلة بالرسول ﷺ منهم؟ هل كان يجبرهم على القتال؟

ليس لدينا ما يدل على إجبارهم من الناحية العملية، ولكن ما ورد في القرآن الكريم من آيات في المنافقين والمتخاذلين، وموقف المسلمين منهم يدل على «إجبار معنوي» ربما كان أثره ومردوده أكبر من الإجبار المادي الفعلي.

لقد تخلف عن القتال في أحد ثلث الجيش تقريراً، بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول<sup>(١)</sup>، فأنزل الله عزوجل في تلك الغزوة في القرآن الكريم ستين آية من سورة آل عمران، ومما جاء فيها عن المنافقين: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَمِيعَانِ فِي إِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ \* وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَأَفَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتَلًا لَا تَبْعَنُكُمْ هُمُ الْكُفَّارُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ يَا فَوَّهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُوَّتِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> والمقصود بالذين قيل لهم تعالوا قاتلوا هم المنافقون. وهم كما يشير القرآن الكريم يومئذ أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان. وهذا الوصف «المنافقون» في مجتمع المدينة، المجتمع القائم على الإيمان يجعل الواحد منهم يفضل الموت على الحياة إن كان سيوصف بالتفاق أو الجبن أو التخاذل.

ولهذا لم يتباطأ أحد من المسلمين لاحقاً عن المشاركة في الغزوات، وإن كان يظهر أحياناً على بعضهم ما يدل على التفاق أو الجبن أو التهاون.

(١) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٣، ص ٦٨.

(٢) آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧.

ففي غزوة تبوك سأله رسول الله ﷺ الجَدُّ بن قيس أحد بنى سلمة ما إذا كان يرحب في حروب الروم، فتدبر بحجة واهية هي أنه يخشى على نفسه الفتنة إن رأى نساء الروم، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ونزلت فيه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْلُ أَثْدَنَ لِي وَلَا نَفْتَنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال بعض المنافقين لبعض: لا تنفروا في الحر<sup>(٢)</sup>، فأنزل الله ﷺ فيهم ﴿وَقَالُوا لَا نَفْرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارٌ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ولما بلغ الرسول ﷺ أن ناساً يجتمعون في بيت سويم اليهودي وهو يتبظهم عن المشاركة في غزوة تبوك، أرسل من يحرق بيت سويم عليهم. ومن بين من تخلف عن المشاركة في غزوة تبوك تهاوناً ثلاثة من المسلمين، لم يكونوا من المنافقين، وعند عودة الرسول ﷺ إلى المدينة، قال لأصحابه: «لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة»<sup>(٤)</sup> فاجتنبهم الناس خمسين ليلة كانت حياتهم فيها جحيناً لا يطاق، المسلمين لا يكلمونهم، ونساؤهم لا تقربهم، فأصبحوا كالجريبي بين أصحاب... واستمر حالهم على هذا المنوال حتى تاب الله عليهم، ونزل فيهم آيات من القرآن الكريم ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرْبِعُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الْثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) ابن هشام، السيرة، م.س، ج٤، ص ١٦٠.

(٣) التوبة: ٨١.

(٤) ابن هشام، السيرة، م.س، ج٤، ص ١٧٥.

(٥) التوبة: ١١٧ - ١١٨

من هذا الاستعراض نستدل على أن الرسول ﷺ الذي يمثل رأس السلطة، لم يجبر الناس بالقوة على القتال. حتى إنه أثناء خروجه إلى غزوة تبوك كما روى ابن مسعود: كان يختلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله تختلف فلان، فيقول: (دعوه، فإن يك فيه خيراً فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه) <sup>(١)</sup>.

وكان يقبل من المنافقين أذارهم، ولكنه كان يمنع بث روح الهزيمة والتقاعس بين المسلمين. وكان الذين يتخلّفون يتعرضون لضغط معنوي يمنعهم من التخلّف.

وفي ترك المنافقين على هواهم، وعدم إشراكهم في القتال حكمة بالغة، لأنهم يشكلون دائمًا عنصراً مثبطاً للعزائم ضمن الجيش، فلا فائدة تُرجى منهم. ولكن المؤمن المتّهّل أو المتّهّب من القتال يمكن تحويله إلى عنصر فعال يؤدي واجبه في أحد المجالات المؤهل لها.

أما في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما طلبت العمليات العسكرية على جبهة فارس دعماً عسكرياً، كتب الخليفة إلى المثنى، قائد الجبهة، يأمره بإخراج المسلمين من بين العجم والتفرق بحيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدة من ربيعة ومصر «ويحضرهم طوعاً أو كرهاً» <sup>(٢)</sup>.

(١) موسوعة الحديث، رقم ١٩٩٣.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن، التاريخ، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٧٧م، ج٢، ص٩١٦.

وكتب إلى عمّاله على العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو رأي<sup>(١)</sup>. وكان الذي يختلف عن القتال يعاقب بنزع عمامته والتشهير به أمام الناس.

وهكذا نرى أن الخليفة عمر عندما احتاجت جيوشه إلى النجدة أجبر القادرين من المسلمين على حمل السلاح والمشاركة في القتال على الالتحاق بالجيش، وهذا هو بالضبط ما نسميه في العصر الحاضر بـ«الإلزامية التجنيد»، وهذا أول إجبار مادي، وأول سوق عام إلى القتال في تاريخ المسلمين عثرت عليه، ويمكننا أن نسميه «الفير العام».

ومع ذلك نلاحظ من دراسة السيرة النبوية الشريفة أن الرسول ﷺ كان يراعي أحوال الناس، فقد جاءه مرّة رجل يستأذنه في الجهاد فسأله: «أحّي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد»<sup>(٢)</sup>، ويستدل من الحديث الشريف أن الرجل كان يعيّل والديه، وربما كان وحيدهما، أو له إخوة صغار، وإلا لكان أجاب الرسول بأن لوالديه مَن يهتم بهما ويعيّلهما، ولمّا لم يُشر إلى شيء من هذا القبيل أعفاه الرسول ﷺ من القتال.

وجاء مرّة أخرى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله اكتتب في غزوة كذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجة، فقال: اذهب فحجّ مع امرأتك»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن خلدون، التاريخ، م.س، ج ٢، ص ٩١٦.

(٢) البخاري، مختصر صحيح البخاري المسمى التجرید الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تأليف: الإمام أحمد بن محمد بن عبد اللطيف الزبيدي، تحقيق: إبراهيم بركة، مراجعة أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط ١٠، ١٤٣٣ھ / ٢٠١٢م، ص ٢٩٠.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من اكتتب في جيش وخرجت امرأته حاجة.

## البدل النقدي

يتفق جمهور الفقهاء على أن الجهاد فرض كفاية<sup>(١)</sup>، وفي التنزيل: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الَّذِينَ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»<sup>(٢)</sup>. فالنفير يكون للجهاد ويكون لطلب العلم، ولا يفرض على جميع المسلمين ترك أعمالهم والتغیر كافة لأي من الأمرين. يقول عبد الرؤوف عون: «وهذه الطائفة هي التي استكملت أسباب الجهاد وشروطه، وتتوفرت فيهم القوة المعنوية الدافعة، ولذا كان أحدهم إذا تخلف عن الجهاد استأجر بدله أجيراً للقتال، على شيء معين يدفعه له، فعلى هذا فالبدل الشخصي كان معمولاً به في الجاهلية»<sup>(٣)</sup>.

والذي أراه أنه لم يكن لأي شخص أن يستأجر من يقاتل عنه، ولا أرى أن ذلك كان قاعدة متتبعة في صدر الإسلام، بل كان المسلمون الأولون يندفعون إلى القتال انطلاقاً من إيمانهم العميق بالله، وإعلاء كلمته ونشر دينه، ولكن الذي كانت ظروفه تحول بينه وبين المشاركة الفعلية في القتال كان يجهز غازياً يرغب في القتال ولا يملك عدته، ويكون ذلك التماساً للأجر والمثوبة من الله تعالى، فقد جاء في الحديث الشريف (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا)<sup>(٤)</sup>، وتتممة الحديث (وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًّا فَقَدْ غَزَا)، أي ومن يقوم برعاية عائلة غاز مجاهد في سبيل الله أثناء غياب معيلها في الغزو فله أجر الغازي.

(١) أبو شريعة، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، م.س، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢) التوبة: ١٢٢.

(٣) عون، عبد الرؤوف، الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص ٩٣.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير، والحديث متفق عليه.

وأما موضوع الجندي الإلزامية التي تهدف إلى التدريب والإعداد، فهذا أمر يدخل في باب الأمر بالإعداد في قوله عَزَّلَكَ: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ...»<sup>(١)</sup>، ويجب لا يغنى منها إلا ذوي الأعذار، وأما فتح باب البدل النقيدي عن الخدمة الإلزامية على مصراعيه ومن دون سبب، فبالإضافة إلى منافاته روح الشريعة الإسلامية يمجده العقل السليم، لأنه يفضي إلى التمييز بين شرائح المجتمع في مجتمع يفترض أنه لا طبقية فيه، وتقتصر عندها الخدمة الإلزامية على الفقراء، وكأننا بذلك نجعلهم وحدهم المسؤولين عن القتال وردد الأعداء ووقف الاعتداء، لأنه لا يُدعى إليه إلا من تدرّب عليه.

ومع أننا نرى فرض التدريب العسكري على جميع المواطنين في العصر الحاضر، فإنه علينا أن نتنبه إلى أسباب تحول دون اندفاع الشباب إلى تأدية هذا الواجب في كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وبالإضافة إلى التوجيه المعنوي الذي يتضمن إقناع المجند بأنه عندما يتقدم إلى التدريب فهو يؤدي فريضة، وأنه إن تهرّب من التدريب وإعداد نفسه لمقاتلة العدو فهو آثم، يجب على القيادة أن تقوم بدورها أيضاً وفقاً للشريعة، فلا تميّز بين مجند وآخر، ولا تكلف مجندًا ما لا يطيق، ولا تجعل من الجنود خدماً في بيوت قادتهم، ولا تفرض عليهم القيام بما يخرج عن مهمات التدريب وخدمة القوات المسلحة، كما يحدث في كثير من جيوبنا، ويؤدي إلى نفور الشباب من القيام بهذا الواجب، وسنعود إلى بحث هذا الموضوع والتوسيع فيه عند الحديث عن رؤيتنا لإنشاء جيش معاصر مؤهل للقتال، وشعب جاهز لتأدية واجب الدفاع عن بلاده وعقيدته.

(١) الأنفال: ٦٠

## الفصل الخامس



### الشُّؤُون الْاسْتَخْبَارَاتِيَّةُ وَالْإِدَارِيَّةُ

#### الاستطلاع والاستخبارات

أولى الرسول ﷺ اهتماماً كبيراً للاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو، لأن القرار الصحيح يلزم معلومات صحيحة، ودقيقة، وكافية، وفي الوقت المناسب.

ولذلك كان أول ما بدأ به بعد هجرته إلى المدينة ﷺ جمع المعلومات عن تحركات قريش وما يدور في مكة، وعن القبائل المحيطة بالمدينة، ودراسة الطرق والمسالك المختلفة، بوساطة دوريات استطلاعية كانت تسمى سرايا.

ويلفتنا مما يتعلق بموضوعنا هذا سرية عبد الله بن جحش في شهر رجب من السنة الهجرية الثانية، قبل غزوة بدر.

فقد سلمَ الرسول ﷺ قائد السرية رسالة مغلقة، وأمره بالتوجه إلى ناحية معينة، وأن يفتح الرسالة بعد مسيرة يومين. وبعد الاطلاع على المهمة المكتوبة في الرسالة يمضي لتنفيذها، من دون أن يُكره أحداً من رجاله على مراجعته إن لم يرغب في ذلك. وأما المهمة فكانت ما يأتي: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم»<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن هشام، مختصر السيرة، م.س، ص ١١٤. ونخلة: اسم مكان على مقربة من مكة.

وفي أثناء غزوة الخندق أسلم نعيم بن مسعود الغطفاني، ولم يعلن إسلامه لقومه، وكانت قبيلة غطفان موالية لقریش، فجاء إلى الرسول ﷺ وأعلمته بإسلامه، فاغتنم الرسول ﷺ الفرصة، وكلّفه بمهمة استخباراتية خاصة، قال له: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنّا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»<sup>(١)</sup>.

فاستطاع نعيم بحكمته وحنكته أن يؤدي خدمة يعجز عنها جيش كامل، فقد أوقع بين قومه وقریش من جهة، وبين حلفائهم من يهودبني قريظة من جهة أخرى، وزرع في نفوسهم بذور الشك وانعدام الثقة، فتفرقت كلمتهم، وانفرط عقدهم<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٣ ص ٢٤٠.

(٢) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، لأحمد راتب عمروش، م.س، ص ٨٢. وابن هشام، السيرة، م.س، ج ٣ ص ٢٤٠ وما بعدها. والطبرى، التاريخ، م.س، ج ٢، ص ٥٧٩. وأما ما فعله نعيم فقد ذهب إلىبني قريظة، وكان صديقاً لهم، فقال لهم: إن الصداقة التي بيننا تفرض علىي أن أنصحكم، فقریش وغطفان جاؤوا المدينة من بلاد أخرى، وهم يحاولون انتهاز فرصة ما، ويبغون الغنيمة، فإن لم يستطعوا الظفر بها عادوا إلى بلادهم، وتركوك مع الرجال في بلدكم، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهائن من أشرافهم، يكونون لكم ضماناً لقاتلوا معكم ولا يتخلوا عنكم. فأعجبهم ذلك وقرروا العمل بنصيحته. ثم جاء إلى قریش، وبعدها غطفان، فقال لهم: إن يهود أرسلوا إلى محمد وقالوا له: إننا ندمتنا على ما فعلناه، فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من قریش وغطفان رجالاً من أشرافهم، نسلّمهم إليك، فتضرب أعناقهم، ثم تكون معك على من بقي منهم، فأرسل إليهم بموافقتهم، فإن بعث اليهود يطلبون رهاناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

ثم إن أبي سفيان وقادة غطفان أرسلوا في ليلة سبت من شوال عكرمة بن أبي جهل على رأس جماعة من قریش وغطفان إلىبني قريظة فقال لهم: إننا لستنا بدار مقام، قد هلك الخفُّ والحافر، فأدعوا للقتال حتى ننجز محمداً جداً ونفرغ مما بيننا وبينه. فكان جوابهم أنهم لا يقاتلون السبت، وطلبو الرهائن، وامتنعت قریش وغطفان عن تقديمهم رهائن، وهكذا ظن كل طرف أن ما قاله نعيم بن مسعود صحيح، فتزعزعت الثقة بين الطرفين، وفرط عقدهم، وانهار تحالفهم.

ولما علم الرسول ﷺ بالحقيقة بينهم أراد أن يطمئن إلى هذه المعلومات، فأرسل حذيفة بن اليمان ليتسرب ليلاً إلى معسكرهم ويعرف ما يدور فيه، ويعود إليه بالمعلومات الدقيقة والأكيدة، فمن مهام القائد الملاحقة والتأكد من صحة المعلومات، ومن نجاح أي مهمة استخباراتية، لأن مسرح عمليات الاستخبارات بعيد عن عين القائد. وتفاصيل ما حدث بعد ذلك خارج موضوعنا، ويمكن الرجوع إليها في كتب السيرة.

ويرى بعض الباحثين العسكريين أنه كان لرسول الله ﷺ عيون (جواسيس) في مكة، منهم عمُّه العباس، كانوا يزورونه بأخبار قريش باستمرار<sup>(١)</sup>. ويمكن أن يكون هذا الرأي صحيحاً، وبخاصة إذا علمنا أنه حضر مع الرسول ﷺ ليلة العقبة، حين بايعه الأنصار، فقد كان يهتم لأمر ابن أخيه. وتروي بعض كتب التراجم أنه أسلم قبل الهجرة، وكان يكتم إسلامه لأسباب خاصة به، وبقى مقيماً في مكة يكتب إلى الرسول ﷺ أخبار المشركين، ويعلمه بأحوالهم ونواياهم، كما كان عوناً لل المسلمين المستضعفين الذين بقوا في مكة. قالوا: وأراد القدوم إلى المدينة، فقال له النبي ﷺ: (مقامك في مكة خير)<sup>(٢)</sup>.

وقد خرج مع المشركين في بدر، وأسر فيها، وفدى نفسه، وبذلك حافظ على سمعته لدى مشركي قريش.

(١) عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص ٢١٣.

(٢) النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق الشيخ علي محمد معرض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، إشراف أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩ م، المجلد الأول، ص ٢٥٨.

نستنتج من هذا العرض الموجز والأمثلة أن فكرة الاستخبارات ولدت مع ولادة دولة المسلمين في المدينة، وكان يكلف بمهاماتها من يصلح لها، ولكن لم تنشأ دائرة أو ديوان خاص بها، ولا أخذت شكل المؤسسة، بل كان يقوم بمهامها رجال مؤهلون بطبيعتهم، وبحسب الظروف والأحوال الطارئة.

وقد كان الرسول ﷺ يأمر أحياناً بتعلم لغات الأعداء، كأمره زيد بن ثابت بتعلم السريانية (لغة اليهود)<sup>(١)</sup>. فمن تعلم لغة قوم أمن شرّهم ومكرهم. ومن البدهي أن تعلم لغة العدو يساعد كثيراً على التسرب وراء خطوطه والإقامة على أراضيه، وجلب المعلومات عنه.

ومن المهم في عمليات الاستخبارات اختيار الرجال أو الرجل الكفاء والمناسب للمهمة، فمما يرويه الطبرى أن العلاء بن الحضرمي كان قائداً جيش المسلمين لمحاربة المرتدين في البحرين، وخندق الطرفان شهرًا يتقاتلون ويعودون إلى خنادقهم من دون أن يتحقق أي منهما تقدماً. وفي إحدى الليالي سمع العلاء ضوضاء في معسكر المشركين، فسأل أصحابه: مَنْ يأتينا بخبر القوم؟ فقال عبد الله بن حَدَفَ: أنا آتيكم بخبر القوم، وكان له أخوال بينهم، فتقدمن من خنادقهم فأخذذوه، فانتسب لهم ونادي أحد القوم واستجار به فأجاره، وبعد إطعامه أعاده إلى المسلمين، فشهد أن القوم سُكاري، وذلك سبب ضوضائهم، ولما أُخْبِرَ العلاء بذلك، أطبق بقواته عليهم وقضى عليهم<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ من هذه الحادثة أهمية اغتنام معلومات الاستخبارات في الوقت المناسب، فلو مضى الليل ولم يهاجم العلاء العدو لفقدت المعلومات أهميتها ولم يستفد منها.

(١) رواه الترمذى.

(٢) الطبرى، م.س، ج ٣ ص ٣٠٨.

## تمويل الجيش

يتطلب الجيش نفقات كثيرة يفترض أن تقطع من واردات الدولة، ولكن في بداية تأسيس دولة المسلمين في المدينة لم يكن للدولة واردات، وكما ذكرنا سابقاً كان المقاتل المسلم يؤمّن طعامه وشرابه وسلاحه وفرسه وواسطة نقله، كما كان الأثرياء من المسلمين يتبرعون لتجهيز بعض الغزوات التي تحتاج إلى تمويل. تم تطورت واردات الدولة البكر وأصبحت تتالف من ثلاثة مصادر هي:

- ١ - الزكاة: وهي جزء معلوم يحصل من المال إذا بلغ النصاب<sup>(١)</sup> وحال عليه الحول، أو ما يحصل من أوعية الزكاة المختلفة، والمشروحة في كتب الفقه.
- ٢ - الفيء: وهو ما يؤخذ من أموال الكفار بغير حرب، ويدخل فيه مال الهدنة، ومال الجزية، والخارج<sup>(٢)</sup>.
- ٣ - الغنائم: جمع غنيمة، وهي ما استولى عليه من أموال الكفار عنوة في القتال.

ولم تكن الواردات من العناصر الثلاثة تشكل وحدة تصرف منها حاجات الدولة المختلفة، بل حددت الشريعة وجهة صرف كل صنف من هذه الأصناف.

فالزكاة تحدد أوجه صرفها الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْأَصَدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَدِيمِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةُ فُلُوْجُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرِيمَيْنَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَأَبْنِ السَّيِّلِ فَرِيضَةٌ مِّنْ أَنَّهُ وَاللهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) النصاب: القدر الذي تجب الزكاة بتوافره، انظر: قلعة جي، محمد رواس، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط٤، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.

(٢) العجلاني، منير: عقيرية الإسلام في أصول الحكم، م.س، ص٤٥٩.

(٣) التوبة: ٦٠.

وللفقهاء آراء مختلفة في كيفية تقسيمها، وما إذا كان يجب تقسيمها بالتساوي بين الفئات الثمانية التي حددتها الآية، أو يجوز المفاضلة بين أوجه الصرف الثمانية، ويمكن الرجوع إلى الآراء الفقهية في هذه المسألة في كتب الفقه.

وما يهمنا هنا هو أنه يمكن الإنفاق على الجيش من مورد الزكاة، ويدخل ذلك تحت قوله: (في سبيل الله). وأما حصة المؤلفة قلوبهم، التي كان يقدمها الرسول ﷺ إلى وجهاء القبائل من الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ليستمتعوا بها، وهي شبيهة بما تدفعه المخابرات حالياً أو المسؤولون من النفقات السرية إلى الصحفة ووسائل الإعلام والنافذين، فيمكن الاستفادة منها والإنفاق على بعض أعمال الجيش قياساً.

وأما الفيء فتحدد أوجه إنفاقه الآية الكريمة: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى فَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّيِّلِ﴾<sup>(١)</sup>.

وبناءً على هذه الآية فإن أحد الأقسام الخمسة: أي قسم الله ورسوله يصرف بحسب آراء بعض الفقهاء في مصالح المسلمين، بينما يرى آخرون أنه يُصرف على شؤون الجيش وأرزاق أفراده فحسب<sup>(٢)</sup>.

وأما الغنائم فهي كثيرة ومتشعبة، وتنتألف من سلاح، وأسرى، وسبى، وأراض، وأموال<sup>(٣)</sup>. ولكل صنف أحکامه. ومع أن الفقهاء اختلفوا في كثير

(١) الحشر: ٧.

(٢) انظر: الماوردي، علي بن محمد البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا طبعة وتاريخ، ص ١٦٣. وابن سلام، كتاب الأموال، تقديم ودراسة وتحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م، ص ٣٠١ وما بعدها وص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٣) ابن سلام، كتاب الأموال، م.س، ص ٤١٦، والماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ١٦٧.

من الجزئيات، فإن الأموال تُقسم خمسة أقسام، الخمس منها يقسم قسمة الفيء، والأخمس<sup>(١)</sup> الأربعية الباقيه توزع على المقاتلين.

وفي زمن الرسول ﷺ كان يعطى المقاتل المسلم سلب قتيله من الكفار، ويروى عنه ﷺ : (من قتل قتيلاً له عليه بيته فله سلبه)<sup>(٢)</sup>. وتخصيص القاتل بسلب القتيل هو نوع من التشجيع المادي للمقاتل المسلمين، وبخاصة أن معظم المسلمين كانوا فقراء.

وللفقهاء آراء مختلقة في ما إذا كان السلب يعطى للمقاتلين قبل أخذ الخمس أو بعده، ما يخرج عن بحثنا، والمهم هنا أن الغنائم كانت تشكل مورداً مجزياً ينفق منه على إعداد الجيش.

وبما أن الرِّقَّ الْغَيِّ بالإجماع، يبقى الأسرى تحت تصرف الدولة لمبادلتهم بالأسرى لدى العدو.

وحيث إن الجندي كان يقوم بتجهيز نفسه، وتأمين طعامه، وفرسهه وعلفه، وينفق من ماله على عياله، فإن الغنائم شكلت مورداً كبيراً لهذا المقاتل مقابل ما يقوم به، وميّزت المقاتل الشجاع بأخذ أسلاب قتلاه مهما بلغ عددهم<sup>(٣)</sup>.

ولا أحد يستطيع أن ينكر الدوافع الداخلية النفسية لدى المقاتل وزيادة إقدامه عندما يعلم بأنه سيضيف إلى ظفره بالأخرية مكاسب

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ١٧٧.

(٢) مالك، الموطأ، م.س، كتاب الجهاد، باب ما جاء السلب في النفل. والسلب: ما يكون على القتيل من لباس، وما معه من سلاح.

(٣) أعطي أبو قتادة أسلاب عشرين قتيلاً. الماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ١٧٧. وقد استمر العمل بهذا حتى عهد عمر بن الخطاب، ووضع الديوان كما سنفصله لاحقاً.

مادية في الدنيا. فقد كان البدوي قبل الإسلام يقاتل للمغنم فحسب، ولما جاء الإسلام ولم يمض وقت طويل على زمن الجاهلية والغزو والقتال للحصول على مغانم، أدرك الرسول ﷺ بحكمته وواقعيته أهمية هذا العامل، أي الحصول على سلب القتيل الكافر، لمقاتل المسلمين. وهكذا فقد كان الجندي المسلم يظفر بنصيبيه من الغنائم، وبأساليب قتلاه وفقاً لما ذكرنا. ويمكن أن يضاف إلى كل ذلك النفل<sup>(١)</sup> الذي يخص به القائد من يقدر أنه أهل له لإقدامه أو تحقيقه مهمة صعبة المنال.

وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى وفاة الرسول ﷺ في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، بعد أن أنهى تحضيرات بعث جيش لغزو الروم في جنوبي بلاد الشام، بقيادة أسامة بن زيد، ولكن الجيش لم يتوجه إلى القيام بمهمته إلا بعد وفاة الرسول ﷺ وبلغ تعداده ثلاثة آلاف رجل ومعهم ألف فرس<sup>(٢)</sup>. وتعداد هذا الجيش يوحى بأنه اقتصر على المسلمين المقتدرین الأشداء من المهاجرين والأنصار، من دون مشاركة القبائل المحطة بالمدينة، أو المسلمين من غيرهم.

ويظهر جلياً من مختلف المصادر أنه حتى ذلك التاريخ لم يكن للجيش سجل، أو للمقاتلين رواتب، وأن استنفار أو استدعاء المقاتلين للمشاركة في غزوة ما، كان يتم بطريقة بدائية، بأن يعلن في المسجد عن نية إرسال بعث، فينادي منادٍ أو أكثر في أرجاء المدينة معلناً ذلك، ويحدد لمن يرغب في المشاركة مكان التجمع. وكان مكان تجمُّع بعث

(١) النفل: ما يعطاه المحارب زيادة عن استحقاقه من الغنيمة لأسباب يقررها القائد.

(٢) الواقدي، المغازي، م.س، ج ٣، ص ١١٢٢.

أُسامَة في منطقة «الجُرف» من مشارف المدينة. وكان يسرع كل مقاتل إلى المكان المعلن عنه، حيث يكون القائد الذي اختير لقيادة العملية قد ركَّزَ لواءه. وعندما يكتمل العدد، يقسم القائد الجيش بالشكل الذي يرتئيه، ويعين قادة الوحدات، وينظم تشكيلة المسير. وكانت جميع التشكيلات مؤقتة تنتهي بانتهاء المهمة الموكلة إليها، ويعاد التشكيل في مهمة أخرى بطريقة جديدة.

### الوحدات الإدارية

لم يكن لجيش المسلمين في عهد النبي وحدات إدارية منفصلة، فقد كان طعام الجندي الرئيس: التمر، واللبن (الحليب)، والسويق، واللحام المقدَّد، الذي يمكن أن يحمله الجندي معه. وكان تأميم الطعام يقع على عاتق الجندي نفسه - كما ذكرنا سابقاً - ، كما كان عليه تأميم سلاحه ووسيلة نقله. وربما اشترك جماعة في طبخ لحم حيوان اصطادوه، أو استحضروه لهذه الغاية... وهذا ما جعل تحرك جيش المسلمين خفيفاً وسريعاً، وبخاصة أنهم كثيراً ما كانوا يعتمدون على الغنائم، وعلى ما يخلفه أعداؤهم بعد هزيمتهم.

وكانوا يستعملون في تنقلاتهم ونقل ثقالتهم الجمال والخيول والبغال والحمير، ويعُدُّ الجمل خير وسيلة للتنقل في الصحراء، لامتلاكه خُفَّةً كبيراً، واكتفائِه بعلف متوافر في الصحراء من نباتاتها وأعشابها المختلفة، ولصبره الجميل على الجوع والعطش، بالإضافة إلى بُنيته القوية ومقدرتِه على الحمل.

وكانوا إذا أرادوا سفراً طويلاً يركبون الإبل ويسوقون الخيول وغيرها، كما كانوا يحملون عليها خيامهم ومختلف أمتعتهم.

واستطاع العرب أن يدرّبوا الجمال على القتال<sup>(١)</sup> ويتآلفوا معها في كثير من الأعمال.

وتأتي الخيل في الأهمية بعد الجمال، وإن كانت تتقدم عليها أهمية في المعارك والقتال، ولذلك اهتم العرب في جاهليتهم بالخيل، ونظموا فيها القصائد، وحفظوا أنسابها.

وكثيراً ما نشأت بين الفارس وحصانه علاقة وثيقة، وإلفة ومحبة تحرّر فيها العقول. وازداد اهتمام العرب المسلمين بها. ومن ذلك قوله ﷺ:

(الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيمة)<sup>(٢)</sup>.

إذاً كانت التشكيلات العسكرية مؤقتة في زمن الرسول ﷺ وفي صدر الإسلام، وعلى الرغم من انتشار جيوش المسلمين في زمن أبي بكر في بلاد الشام وببلاد ما بين الرافين وبلوغها زهاء ستين ألف مقاتل يزيدون قليلاً أو ينقصون، فإنهم حتى ذلك التاريخ لم ينشؤوا المعسكرات الخاصة بالجند؛ بل كانت معسكراتهم كما ذكرنا للمقاتلين وعاتلاتهم، ولم يفرضوا للجند رواتب، واقتصرت مواردهم على غنائم الحرب، وقد تمكّنوا من ضبطها بالاعتماد على أمرتين: صدق إيمان المجاهد المسلم، فهو لا يحاول أخذ أكثر من نصيبه، والصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها القادة. لقد دخل الإيمان أعماق القلوب، فعفّت الحاكم والمحكوم.

«لما قدِمَ بسيف كسرى على عمر، ومنطقته، وزبرجه [جواهره] قال: إن أقواماً أذْدوا هذا لذو أمانة. فقال علي: إنك عفْتَ فعفْتَ الرعية»<sup>(٣)</sup>.

(١) عون، عبد الرؤوف، الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص ١٢٢.

(٢) رواه مالك في كتاب الجهاد، باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينها والنفقة في الغزو.

(٣) الطبراني، التاريخ، م.س، ج ٤، ص ٢٠.

## إصلاحات عمر الإدارية

لما لاحظ الخليفة عمر اتساع رقعة الدولة وانتشار جيوشها في بلاد الشام والعراق ومصر، وكثرة مواردها، وبخاصة بعد وصول غنائم جبهة فارس إلى عاصمة الدولة في المدينة المنورة، بدأ يفكر في طريقة يضبط فيها موارد الدولة ومصاريفها. ولئن اختلفت الروايات في من اقترح إيجاد طريقة لضبط الأمور، والسبب المباشر لذلك<sup>(١)</sup>، فإن النتيجة واحدة، وهي أن الخليفة عمر أمر بوضع «الديوان»، وهي كلمة قيل إنها فارسية، ولا يهمنا معناها اللغوي بقدر ما يهمنا محتواها العملي، فهي تضمنت عملية إحصاء المسلمين وتسجيلهم في سجلات خاصة، كسجلات النفوس في العصر الحاضر، وتقدير عائداتهم السنوية.

يقول العجلاني: «اختلف في لفظ الديوان: هل هو عربي أم فارسي؟ فقال قوم، ومنهم سيبويه: هو عربي، ومعناه: الأصل الذي يرجع إليه، وقد روی عن ابن عباس، قال: «إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»، وقال آخرون، ومنهم الأصمسي: بل هو فارسي معرّب.

استعمل الديوان أول الأمر في معنى الأوراق، أو السجل الذي يكتب فيه أصحاب العطاء، وتقدّر أرزاقهم، ثم أطلقوه على مجلس الكتاب، الذين أوكل إليهم القيام ببعض أعمال الدولة، فكان لفظ «ديوان الخراج» مثلاً يقابل في الوقت الحاضر (مديرية المالية) أو (دائرة الجباية)<sup>(٢)</sup>.

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٦١٣ وما بعدها. والماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ٢٤٩ وما بعدها.

(٢) العجلاني، منير، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، م.س، ص ٢٧٤.

وهكذا فقد أدخل الخليفة عمر تغييرًا جذريةً على الوضع الإداري للMuslimين بعد أن كان قبل سنة ١٥هـ كما وصفه ابن الطقطقي، فقال: «كان المسلمين هم الجند، وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا، وكان لا يزال فيهم دائمًا من يبذل شطراً صالحًا من ماله في وجوه البر والقرب، وكانوا لا يريدون على إسلامهم ونصرهم لنبيهم ﷺ جزاءً إلا من عند الله تعالى. ولم يفرض النبي ﷺ ولا أبو بكر لهم عطاءً مقرّرًا، ولكن كانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم، وإذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول ﷺ، وفرق فيهم بحسب ما يراه ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر وأوائل خلافة عمر، حتى أنشأ الديوان.

وقد أدخل في الديوان الذي وضع في زمن عمر جميع المسلمين من رجال ونساء وأطفال، ورتب الناس فيه وفقاً لقربتهم من رسول الله ﷺ. وفضل بالعطاء بعد أهل البيت أهل السابقة في الإسلام، وحسن الأثر في الدين، «ثم روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق، بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهد، فهذا حكم ديوان الجيش في ابتداء وضعه»<sup>(٢)</sup>.

ويرى بعض الباحثين أن الخليفة عمر قصد من وضع الديوان جعل المسلمين كلهم جنداً، مع أنه لم يحمل اسم «ديوان الجند» بل اسم «الديوان»<sup>(٣)</sup>. ومن جهتي أميل إلى أن هدفه لم يقتصر على ذلك، بل أراد

(١) ابن الطقطقي، محمد بن علي، ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، عني بنشره محمود توفيق الكتبى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بلا رقم وتاريخ، ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ٢٥٢.

(٣) ثابت، نعمان، الجندية في الدولة العباسية، م.س، ص ٨٦.

تنظيم أمور الدولة وضبط مواردها ومصارفها. ومن المعروف أنه مع تطور الدولة تعددت الدواوين كما سبّبَه لاحقاً في مكانه من هذا الكتاب، فأُنشئت دواوين للرسائل، وللعطاء، وللجناد، وللخارج<sup>(١)</sup>، وغيرها... وما يهمنا هو الديوان الذي وضعه عمر بن الخطاب، والذي يقابل من وجهة نظرنا في الوقت الحاضر (وزارة الدفاع) أو (وزارة الخارجية) مع بعض التوسيع في المهام.

فمن تاريخ وضع هذا الديوان أصبح لكل مقاتل عطاء (راتباً أو معاشاً) معيناً يصرف له سنويًا. ولم يقتصر العطاء على المقاتلين، بل شمل جميع المسلمين، فغداً المجاهد في سبيل الله لا يخشى على عائلته العوز إن غاب عنها، ولا على أولاده الفقر إن استشهد في القتال في سبيل الله.

وقد اختلفت الروايات قليلاً في مقدار العطاء السنوي الذي قررَه عمر لكل فئة من فئات المسلمين، ونورد بعضها على سبيل المثال:

خمسة آلاف درهم لأهل بدر من المهاجرين وقال: «لأفضلنَّهم على من سواهم» بحسب البلاذري<sup>(٢)</sup>.

وأما بحسب الماوردي فذكر أربعة آلاف درهم لكل من شهد بدرأً من الأنصار، وثلاثة آلاف لكل من هاجر قبل الفتح، وألفاً درهم لكل من أسلم بعد الفتح<sup>(٣)</sup>.

(١) الخراج: ما تفرضه الدولة على الأراضي الزراعية التي فُتحت عنوة وأُبقيت في أيدي أصحابها، كسود العراق الذي فُتح في عهد عمر، أو التي صالح أهلها على الخراج.

(٢) البلاذري فتوح البلدان، م.س، ص ٦٣٨ وما بعدها، وقد أورد عدة روايات، رأيت هذه أقربها إلى الصحة بحسب عقلية عمر كما أقدرها.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ٢٥١ وما بعدها. وقد أورد إحسان الهندي في كتابه «الحياة العسكرية عند العرب» جدولًاً بالأعطيات، يمكن لمن يشاء الرجوع إليه.

ولا يهمنا هنا دقة المبالغ أو صحتها، وإنما المهم فكرة ترتيب واجب على الدولة تجاه رعاياها، وبخاصة المجاهدين والمسلمين الأولين الذين مُيّزوا بعطاء أكثر. علماً بأن العطاء شمل حتى الصبيان والصغار، «فقد سمع عمر ذات ليلة امرأة تُكره ولدها على الفطام، وهو يبكي، فسألها عنه، فقالت: إن عمر لا يفرض للمولود حتى يُفطم، فأنا أُكرهه على الفطام حتى يفرض له، فقال: يا ويل عمركم، احتجب من وزر وهو لا يعلم. ثم أمر مناديه فنادى: ألا تعجلوا أولادكم بالفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام»<sup>(١)</sup>.

وبلغ تعداد الجيش في زمن عمر ممن كانت تصرف لهم الأعطيات مئة وخمسين ألف جندي، موزعين في بلاد المسلمين وجبهات القتال، ضمن جيوش وتشكيلات صغيرة أو كبيرة بحسب ما تدعو الحاجة<sup>(٢)</sup>.

وكما أنشأ عمر الديوان، وفرض للمقاتلين عطاءات (رواتب أو معاشات)، وبما أن الخيل كانت عماد كل الجيوش، فقد «اتخذ في كل مصر، على قدره، خيولاً من فضول أموال المسلمين عدداً لكونِ إن كان، فكان في الكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس»<sup>(٣)</sup>.

ولم أُعثر على تعداد ما اتخذه من خيول في باقي الجهات. والمهم أنه أوجد فكرة إعداد الدولة أسلحة وعتاداً وتملكها لها.

\* \* \*

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص ٢٥٢.

(٢) ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ١٠.

(٣) الطبراني، التاريخ، م.س، ج ٤، ص ٥١.

## الفصل السادس

### أسباب الحرب وأهدافها وأخلاقياتها



#### سمو الهدف في حروب المسلمين

خلق الله هذا الكوكب الجميل الأرض، وخلق فيها البشر ليعمروها، ويستغلوا خيراتها، ويعيشوا فيها سعداء متحابين، يساعد قويهم ضعيفهم، ويعين غنيهم فقيرهم، يقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلْلًا فَامْشُوا فِي مَا نَأَكِلُهَا وَلَكُونُ مِنْ رَّازِقِهِ وَإِلَيْهِ الشُّورُ﴾<sup>(١)</sup>. ولكن تاريخ البشرية على عكس ذلك تماماً، ابتدأ بقتل قabil أخاه هabil...، واستمر القتل والقتال مرافقاً للإنسان من بداية حياته على هذه الأرض، وسيستمر ما دام موجوداً عليها.

وقد شهدت البشرية حرباً لا حصر لها لأسباب متعددة، منها تلبية لرغبة قائد ما متعطش إلى السلطة والسيطرة، ومنها حاجة شعب ما إلى خيرات يفتقدا في أرضه، أو رغبة شعب في التسلط على شعب آخر... إلى غير ذلك من الأسباب، لذلك يحاول المفكرون بعد تقدم البشرية الحضاري تصنيف هذه الحروب، فجعلوها قسمين رئيسين: حرب مشروعة وحرب غير مشروعة، أو حرب عادلة وحرب غير عادلة. فأين تقع حروب المسلمين في هذا التصنيف؟

(١) الملك: ١٥

يدافع كثير من علماء المسلمين ومفكريهم عن حروب المسلمين، فيسمونها حروباً عادلة، يقول محمود شيت خطاب في تعريفها: «الحرب العادلة هي حرب توجه ضد شعب ارتكب ظلماً نحو شعب آخر، ولم ينشأ رفعه، ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية، وتكون لغرض تحقيق سلم دائم، ووجوب احترام حياة وأملاك الأبرياء وحسن معاملة الأسرى والرهائن»<sup>(١)</sup>.

أو يجعلونها ذات طابع سلمي دفاعي<sup>(٢)</sup>.

والذي أفضّله أن نضعها في خانة منفصلة عن غيرها، فهي حروب إسلامية لغايات وأهداف حددتها الإسلام، وهي قد تكون دفاعية، أو وقائية، أو إجهاضية استباقية، أو هجومية لتأمين مناخ من الحرية لشعب مظلوم يسلبه حكامه الطغاة حقوقه الإنسانية، ولكنها لا تكون عدوانية، ولا تكون للسيطرة، ولا لمعانم اقتصادية وسلب خيرات الآخرين، فالإسلام دين السلم والسلام، ويمكن أن ندرس صفاتها وسموّ أهدافها تحت هذا العنوان.

وما يهمنا في الموضوع أن «سمو الهدف» الذي يقاتل في سبيله المحارب المسلم فيقتل أو يُقتل، يرفع من روحه المعنوية ويوّلد لديه طاقة هائلة، يصعب وقفها قبل تحقيق أهدافها. وقد وفق اللواء خطاب في جزء

(١) خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٤هـ/١٣٩٤م، ص ٤٧٣.

(٢) محفوظ، محمد جمال الدين، المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية، م.س، ص ٣٦. والعقاد، محمود عباس، موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٢، ص ٣٩.

من وصفه حروب المسلمين، هو تأكيد أن هدفها توطيد السلام، وحماية نشر العقيدة<sup>(١)</sup>، وليس إكراه الناس على اعتناق الإسلام، فالمبداً العام في الإسلام «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»<sup>(٢)</sup>.

هذا هو الإطار العام لحروب المسلمين، ومن نافلة القول إن المسلمين مأمورون بالقتال كافية دفاعاً عن أنفسهم، ودفاعاً عن أرضهم ومقدساتهم، ودفاعاً عن أموالهم ودفاعاً عن عقيدتهم، ودفاعاً عن المظلومين المستضعفين في الأرض «وَمَا لَكُمْ لَا نُقْتَلُنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلَادِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا»<sup>(٣)</sup> وفي سبيل تأميم الحرية للناس ليدينوا بما يريدون، ويعتقدوا بما يشاؤون، لأن الإسلام هو «النظام» الذي يؤمّن للبشرية رخاءها، وللناس سعادتهم. وبعد عرضه على الناس في مناخ من الحرية بعيداً عن الضغط والإكراه «فَمَنْ شَاءَ فَلَيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكُفُرْ»<sup>(٤)</sup>، وليس للنبي أو الحاكم أن يُكره أحداً على الإسلام «أَفَأَنَّ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»<sup>(٥)</sup>، والذي يحاسب الناس على كفرهم هو خالقهم «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّ وَكَفَرَ فَيَعْذِبُهُ اللَّهُ الْعَذَابُ أَلَّا كَبِيرٌ»<sup>(٦)</sup>.

(١) خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، م.س، ص ٤٧٥ - ٤٧٩.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) النساء: ٧٥.

(٤) الكهف: ٢٩.

(٥) يونس: ٩٩.

(٦) الغاشية: ٢١ - ٢٤.

## الثقة بالنصر والظفر

إن الثقة بالنصر من أهم العوامل التي تدفع المقاتل إلى الاستماتة في القتال والاستهانة بمخاطرها، فإن شهد النصر فذلك ما يتغيه، وإن قُتل فسينعم بالنصر أهله وأصحابه وأحبابه، وهو سيظفر بالشهادة وينال أجر الشهيد الذي تحدثنا عنه.

ولهذا نجد الله عزّ وجلّ العالم بنيفسيات عباده، يعد المؤمنين بالنصر في كثير من آياته الكريمة، ومنها:

﴿وَلَيَنْصُرَ رَبُّكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَنِيفٌ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ تَصْرُّفُ اللَّهِ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَلَبُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿قَتَلُوكُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٦)</sup>.

ومن مجمل هذه الآيات وغيرها يتبيّن لنا أن النصر حتمي للمؤمنين الذين ينصرون الله، وأن النصر الموعود لا لبس بأنه في الحياة الدنيا.

(١) الحج: ٤٠.

(٢) محمد: ٧.

(٣) الروم: ٤٧.

(٤) الصافات: ١٧٢ - ١٧٣.

(٥) التوبه: ١٤.

(٦) غافر: ٥١.

وكان الرسول ﷺ يجسّد الإيمان بالنصر بسلوكه وفي أحاديثه. ومن ذلك أنه في أثناء حفر الخندق، في غزوة الأحزاب، واجه بعض المسلمين ضخمة استعصت على العاملين في تحطيمها، فأخذ الرسول ﷺ المعول، «فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة»، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى. قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى، قال [أي الراوي سلمان الفارسي]: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوّل قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح على يمينك، وأما الثانية فإن الله فتح على يسارك، وأما الثالثة فإن الله فتح على يمينك <sup>(١)</sup>.

وهذا ما جعل أحد المنافقين يقول بعد اشتداد الحصار: «كان محمد يُعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائب» <sup>(٢)</sup>.

وهكذا فقد كان الرسول يُعد أصحابه بالنصر وهم في أحلام الظروف، ومن ذلك وعده إياهم بدخول مكة بعد الحديبية.

وقصة الحديبية أنه خرج ﷺ في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة معتمراً، ولكن قريشاً رفضت دخوله مكة في ذلك العام <sup>(٣)</sup>، ووقعت معه اتفاقاً، من بنوده أن يعتمر في العام التالي لذلك العام، فاستاء المسلمون وشعروا بخيالية الأمل، ولما عادوا إلى المدينة قال له بعضهم: «ألم تقل

(١) ابن هشام، السيرة، م.س، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٣) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، م.س، ص ٨٩.

يا رسول الله إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلـ، أفقـلت لكم من عامـي هـذا؟  
قالـوا: لاـ، قالـ: فهوـ كما قالـ لي جـبرـيل ﷺ<sup>(١)</sup>.

ولـم تـكن أـراجـيف المـناـفـقـين لـتفـتـ في عـضـدـ المـسـلـمـين أو تـؤـثـرـ في  
معـنـوـيـاتـهـمـ، بلـ كـانـتـ تـزـيـدـهـمـ ثـقـةـ وـإـيمـاـنـاـ بـأـنـ «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ  
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُكَفِّرُونَ»<sup>(٢)</sup>، وأـصـبـحـ ذـلـكـ جـزـءـاـ مـنـ  
عـقـيـدـتـهـمـ، لمـ يـضـعـفـ بـمـوـتـ الرـسـوـلـ ﷺ، وـكـانـ قـادـتـهـمـ يـرـدـدـونـ هـذـهـ  
الـمـعـانـيـ فـيـ مـفـاـوـضـاتـهـمـ مـعـ أـعـدـائـهـمـ، وـعـلـىـ مـسـامـعـ جـنـوـدـهـمـ، وـخـيـرـ مـثـالـ  
عـلـىـ ذـلـكـ حـدـيـثـ زـهـرـةـ [بنـ حـوـيـةـ التـمـيـيـيـ] القـائـدـ الـعـرـبـيـ الـمـسـلـمـ إـلـىـ  
رـسـتـمـ قـائـدـ الـفـرـسـ قـبـيلـ مـعـرـكـةـ الـقـادـسـيـةـ: «... ثـمـ بـعـثـ اللـهـ تـبارـكـ وـتـعـالـىـ  
إـلـيـنـاـ رـسـوـلـاـ، فـدـعـانـاـ إـلـىـ رـبـهـ فـأـجـبـنـاهـ، فـقـالـ لـنـبـيـهـ ﷺ، إـنـيـ قدـ سـلـطـتـ هـذـهـ  
الـطـائـفـةـ عـلـىـ مـنـ لـمـ يـدـنـ بـدـيـنـيـ، فـأـنـاـ مـنـتـقـمـ بـهـمـ مـنـهـمـ، وـأـجـعـلـ لـهـمـ الـغـلـبةـ  
مـاـ دـامـوـاـ مـقـرـيـنـ بـهـ، وـهـوـ دـيـنـ الـحـقـ، لـاـ يـرـغـبـ عـنـهـ أـحـدـ إـلـاـ ذـلـ، وـلـاـ  
يـعـتـصـمـ بـهـ أـحـدـ إـلـاـ عـزـ»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابنـ هـشـامـ، السـيـرـةـ، مـسـ، جـ٣ـ، صـ٢٤١ـ.

(٢) المـنـافـقـونـ: ٨ـ.

(٣) الطـبـرـيـ، مـسـ، جـ٣ـ، صـ٥١٧ـ.

## أخلاقيات الحرب في الإسلام وأدابها

يفرض سمو الهدف في حروب المسلمين عليهم أخلاقيات متميزة في حروبهم. وإن لم يلتزم بعض المسلمين في بعض حقب التاريخ بهذه الأخلاقيات فالعيب فيهم وليس في الإسلام.

فقد اعتاد الناس على تسويغ ما يحدث في الحروب من انتهاك للحرمات، وسلب للأموال، وقتل للأبراء، وارتكاب للموبقات بقولهم «هكذا هي الحرب».

وقد وصف الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى الحرب وبشاعتها فقال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم      وما هو عنها بالحديث المرجم

ومن المعلوم أن كل طرف من المتحاربين لا يفكر إلا بالغلبة والنصر، ولا شيء يردع المتقاتلين عن ارتكاب مختلف الجرائم، ما جعل الدول تعمد متأخرة إلى وضع اتفاقات في ما بينها تضبط تعامل المتحاربين وتتضمن حقوق المدنيين والأسرى، وتحدد جرائم الحرب وتحاسب عليها، وغير ذلك مما هو متعارف عليه في الوقت الحاضر.

ولكن هذه الاتفاques لا تلزم إلا الموقعين عليها، وإن انتهك أحد الأطراف بعض بنودها؛ ردّ الطرف الآخر بانتهاكات أشنع وأبشع. ومن الملاحظ أنها تنتهك يومياً ومن قبل الأطراف الأقوى التي وضعتها، لأنه لا أحد يحاسبها.

أما في الإسلام فهناك مبادئ أخلاقية لا يجوز انتهاكلها لأنها أوامر ومبادئ دينية، والله هو الذي يحاسب على انتهاكلها. حتى المعاملة بالمثل غير جائزة إن خالفت الشريعة.

فلا يجوز مثلاً قتل الأسرى ولو قتل العدو أسرى المسلمين.

فحروب المسلمين تهدف إلى رفع الظلم عن الناس<sup>(١)</sup>، وتأمين مناخ من الحرية لهم ليدينوا بالمعتقد الذي يريدون، ولتأمين العدالة في ما بينهم. وهذا ما جعل سكان المناطق التي فتحها المسلمون يستقبلون الفاتحين محررين لا مستعمرين، وهادين لا طامعين، ولذلك أيضاً أسلم معظم سكان تلك المناطق، وحسّن إسلامهم، وحملوا الإسلام إلى غيرهم من شعوب الأرض.

وهذا ما جعل الفيلسوف، وعالم الاجتماع، غوستاف لوبيون يقول في كتابه «حضارة العرب»: «فعاملوا كما رأينا أهل سورية ومصر وإسبانيا، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم غير جزية [ضريرية] زهيدة إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا ديناً مثل دينهم»<sup>(٢)</sup>.

وحددت أخلاقيات الحرب عند المسلمين آياتٌ بيناً وأحاديث شريفة، وتطبيق عمليٌ من قبل الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والقادة المشهورين في التاريخ الإسلامي.

فقد جاء في القرآن الكريم ثناء على المؤمنين الذين يكرمون الأسير، فقال وحجل:

﴿وَيُطْعِمُونَ الظَّعَامَ عَلَى حُلَمٍ، مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) فرج، المقدم محمد، السلام وال الحرب في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، بلا طبعة، ١٩٦٠هـ/١٣٧٩، ص ٣٩ وما بعدها.

(٢) غوستاف لوبيون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٦٣٠.

(٣) الإنسان: ٨.

وأشار إلى إطلاق الأسرى بقوله:

﴿ حَقٌّ إِذَا أَنْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَنَاقَ فَإِمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَقٌّ نَصَّعَ الْحُرُبَ أَوْزَارَهَا ﴾<sup>(١)</sup>.

والمن: هو إطلاق سراح الأسير من دون مقابل.

كما أمر بالاستجابة للمستجير بقوله:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَسْتَجَارَكَ فَلْأَجِرْهُ حَقٌّ يَسْمَعُ كُلُّمَ اللَّهِ ثُمَّ أَتْلِغْهُ مَا مَنَهُ ، ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويلفت في هذه الآية عدم الاكتفاء بالجيرة؛ بل الأمر بحماية المستجير حتى يبلغ مأمنه.

وشدد على الوفاء بالوعود والعقود فقال:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدَ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>.

وأما الأحاديث الشريفة والسنّة النبوية فقد أكدت في مواطن كثيرة على أخلاقيات لم تكن قبل الإسلام ولم تطبق من قبل غير المسلمين حتى في العصر الحاضر، على الرغم من ادعاءات من يدعون الرقي والتحضر.

فمنذ بدايات الإسلام يروى عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ رأى في بعض معازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان»<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد: ٤.

(٢) التوبة: ٦.

(٣) النحل: ٩١.

(٤) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد.

كما نهى عن المثلة: ومن أقواله في توصياته لقواته: (انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا. إن الله يحب المحسنين<sup>(١)</sup>).

ولما جاءه وفد مسلمة الكذاب سمع منهما كلاماً تجاوزا فيه الحدود، فقال لهما: (لو كنت قاتلاً رسولًا لقتلتكما)<sup>(٢)</sup>.

فصارت سنة قوله وفعليه تمنع قتل الرسل والوفود.

وبناءً على ما ذكرنا من آيات، وعلى ما تعلمه الصحابة من رسول الله ﷺ أو سمعوه، كانت وصية أبي بكر لجيش يزيد ابن أبي سفيان عندما بعثه على رأس جيش فتح الشام: «إنك ستتجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله [الرهبان]، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له. وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر [كل شديد غليظ من الرجال] فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. وإنني موصيك بعشر: لا تقتلنَّ امرأة، ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعنَّ شجراً مثمراً، ولا تخربنَّ عامراً، ولا تعقرنَّ شاةً، ولا بعيراً، إلا لمأكلة. ولا تحرقنَّ خلاً، ولا تُفرِّقنَّه، ولا تغللْ، ولا تجبنْ»<sup>(٣)</sup>. ونلاحظ أن هذه الوصية شملت في كلمات قليلة بسيطة مبادئ كثيرة، وأخلاقاً لم يتوصل إلية دعاة التحضر حتى الآن، على الرغم من توافق معظم الدول على القانون الدولي الإنساني المعروف باتفاقات جنيف الأربع سنة ١٩٤٩م، والذي لا يلتزم

(١) أخرجه أبو داود في السنن، في كتاب الجهاد، باب دعاء المشركين.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في مسنده، وغيرهما.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الجهاد.

الموقون عليه بتطبيقه، وما يجري في فلسطين المحتلة وغيرها دليل ساطع على صدق ما نقول.

فالنهي عن قتل النساء والصبيان والشيوخ هو ما يسمى في العصر الحديث بـ«حماية المدنيين»، ومن لا دخل لهم في القتال.

وأما حفظ الأبنية والزروع والحيوانات فيه معانٍ كثيرة، منها عدم الإيذاء، والنهي عن الحصار، وغير ذلك مما لا مجال للإطالة فيه.

وأما عمر بن الخطاب فقد تشدّد مع قادة جيشه لدرجة تهديدهم بالقصاص في حال المخالفة، فكتب مرّة إلى عامل جيشه بعثة: «إنه بلغني أن رجالاً منكم يطلبون العلّج [الشديد الغليظ]، حتى إذا أُسند في الجبل وامتنع، قال رجل: مَطْرس [لا تخف]، فإذا أدركه قتله، وإنني والذي نفسي بيده، لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه». وسُئل مالك عن الإشارة بالأمان: أهي بمنزلة الأمان؟ فقال: نعم<sup>(١)</sup>.

وقد كان الصليبيون في ما يُعرف بحروب الفرنجة يقتلون الأسرى والرسل، وينقضون الاتفاques والمعاهدات، مثل ذلك ما فعلوه في بلدة المعّرة شمالي بلاد الشام، فقد اضطُرَّ السكان إلى الاستسلام مقابل منحهم الأمان، والتجمّأ قسم منهم إلى بعض الدور الحصينة وطلبوها الأمان مقابل دفع ضريبة. وفرض الصليبيون مبلغًا من المال على كل دار، واطمأن السكان، غير أن الصليبيين لم يحترموا الأمان الذي منحوه للسكان، فغدروا بهم في اليوم التالي، ورفعوا الصليب فوق البلد، وقطعوا عن أهلِه القطاع، ولم يفوا بشيء مما قرّروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الجهاد.

الناس بما لا طاقة لهم به، وقدر ابن العديم عدد قتلى المسلمين في معركة النعمان بأكثر من عشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبي، في حين قدرهم ابن الأثير بما يزيد عن مائة ألف»<sup>(١)</sup>.

ولم يبادلهم المسلمون هذه الانتهاكات بمثلها، ويشهد كتاب أوروبيون لمحرر القدس القائد صلاح الدين الأيوبي بتسامح لا مثيل له، «فقد طلب العادل من أخيه صلاح الدين أن يطلق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة عن خدماته له، مظهراً بذلك تساماً كبيراً، فوهبهم له صلاح الدين، وإذا ابتهج البطريرك لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، كما وهب «باليان» خمسينية أسير، ثم أعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز، وذهب بعيداً عندما وعد هؤلاء النساء بأن يطلق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، ومنح الأرامل واليتامى العطايا من خزانته، كل واحد بحسب وضعه»<sup>(٢)</sup>.

هذه هي أخلاق الحرب في الشريعة الإسلامية، التي ساد بها المسلمون العالم القديم، والتي ما التزم بها المسلمون إلا انتصروا، وما أهملوها وظلموا إلا هزموها، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

\* \* \*

(١) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨٤.

## الفصل السابع

### القوات المسلحة في عهد الخلفاء الراشدين



#### المسلمون والرّدة

بعد وفاة الرسول ﷺ، في الثاني من ربيع الأول سنة ١١هـ بويع أبو بكر الصديق خليفةً، ولم يمض وقت طويل حتى جاءته وفود من بعض القبائل وأعلنوا له أنهم «يقررون بالصلة ويمعنون دفع الزكاة، فلم يقبل ذلك منهم وردهم»<sup>(١)</sup> فأعلنوا العصيان.

ووصف الحطيئة مواقف بعض القبائل جاء فيها:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا	في لهftا ما بال دين أبي بكر
أiorثها بكرأ إذا مات بعده	فتلك وبيت الله قاصمة الظهر <sup>(٢)</sup>

وكان قد بدأ ظهور عدد من الدجالين ادعوا النبوة في زمن الرسول ﷺ، منهم الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة بن حبيب الكذاب في بني حنيفة باليماما، وطلحية بن خويلد في بني أسد، وسعجاع... وغيرهم. وبوفاة النبي ﷺ كثر أتباعهم، وكثير المرتدون، وكان على الخليفة أن يقاتل العصاة الذين أعلنوا العصيان في مناطق كثيرة من جزيرة العرب، إذ شمل العصيان معظم قبائل العرب، كلها أو بعض أفرادها،

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٢٤١.

(٢) المبرد، الكامل في اللغة والأدب.

باستثناء قريش وثقيف<sup>(١)</sup>، وهددوا عقيدة الأمة ووحدة أراضيها، ولم تميز كتب التاريخ بين أدعياء النبوة وأتباعهم، وبين الممتنعين عن دفع الزكاة، وسموا الجميع «مرتدين»، والواقع أن معظمهم متمردون، لم يرتدوا عن الإسلام ديناً، بل أرادوا تعديل بعض أركانه أو عدم الالتزام بها.

ومن الجدير بالذكر أن قتال المرتدين لم يكن لتركهم الإسلام، فالإسلام ضمن حرية العقيدة، ولكن لعصيانهم وخروجهم عن طاعة الدولة، وهذا حق لكل دولة في الماضي والحاضر، أن تقاتل العصاة، وبخاصة إن استقلوا بجزء من البلاد أو حاولوا ذلك.

وقد انتظر أبو بكر عودة جيش أسامة الذي جهزه الرسول ﷺ، ووجهه هو لقتال الروم، ليزيد في قواته بذلك الجيش. وليستشير الصحابة الذين كانوا في ذلك الجيش في أمر هؤلاء العصاة، وليوزعهم على الجيوش التي ستطلق لمحاربة المرتدين، فارتأى بعضهم ألا يقاتل الممتنعين عن دفع الزكاة، ولكنه أصر على قتال جميع العصاة، ولم تمنعه رقتها المعهودة التي اتصف بها من الحزم واتخاذ موقف صلب، عندما آلت القيادة إليه، وهذا من أهم صفات القائد الناجح. وتنفيذاً لموقفه وقراره شكل جيشاً لمقاتلة المرتدين، وكان تشكيل تلك الجيوش على الشكل الآتي:

١ - جيش بقيادة خالد بن الوليد لقتال طليحة بن خويلد في بني أسد ومن انضم إليهم، على أن يتوجه بعد الانتهاء منهم إلى مالك بن نويرة قائد بني تميم، وحدّد له مكان تجتمع في «ذي قصة» على مقربة من

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٢٤٢ وما بعدها.

المدينة، وبلغ تعداده أربعة آلاف مقاتل، من المهاجرين والأنصار والقبائل العربية القرية من المدينة المنورة<sup>(١)</sup>.

ثم انضم إليه ألف مقاتل بقيادة عدي بن حاتم<sup>(٢)</sup>.

وبذلك أصبح تعداد جيش خالد خمسة آلاف مقاتل، يضاف إليهم أفراد ذكرتهم كتب التاريخ من دون ذكر عددهم.

٢ - جيش بقيادة عكرمة بن أبي جهل لقتال مسلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة، ولم تذكر كتب التاريخ عدد أفراد ذلك الجيش، ولكن المهمة التي أوكلت إليه، وهي مهمة أكبر من مهمة خالد أو مثلها على الأقل، ومكانة قائد ذلك الجيش تجعلنا نميل إلى أن ذلك الجيش لم يكن أقل من جيش خالد، هو وجيش شرحبيل بن حسنة الذي كُلف بمهمة دعم جيش عكرمة، وربما بلغ ثلاثة آلاف مقاتل أو يزيدون.

٣ - جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة، أرسله وراء جيش عكرمة دعماً له، فإذا انتهى من اليمامة يسير إلى قضاة<sup>(٣)</sup>، ولم تذكر كتب التاريخ تعداد هذا الجيش أيضاً، وبما أن مهمة دعم جيش عكرمة يغلب على الظن أن عدد أفراده أقل من ذلك الجيش، وأنه كُلف بمهمة أخرى تالية نميل إلى أن عدد أفراده لم يكن يقل عن ألفي مقاتل، وهذا ما ارتاه أحمد عادل كمال أيضاً<sup>(٤)</sup>.

(١) كمال، أحمد عادل، الطريق إلى المدائن، دار النفائس، ط١، ١٩٧٢م، ص ١٦٥، وذكر أن قيادة هذا الجيش عرضت على بعض الصحابة فرفضوها، رغبة منهم في أن يكونوا من المقاتلين حتّاً بالاستشهاد، لأن القائد لا يباشر القتال بنفسه، والأصح أنه كان يباشر القتال بنفسه، ولكنه لا يدفع في الصفوف الأمامية ليتمكن من التوجيه والقيادة.

(٢) الطبرى، م.س، ج ٣، ص ٢٤٩، وابن خلدون، التاريخ، م.س، ج ٢، ص ٨٦٩.

(٣) ابن خلدون، م.س، ج ٢، ص ٨٦٦.

(٤) كمال، أحمد عادل، الطريق إلى المدائن، م.س، ص ١٧٣.

- ٤ - جيش بقيادة طريفة بن حاجز لقتالبني سليم ومن لحق بهم من هوازن، ولم تذكر كتب التاريخ عدد قواته، وأميل إلى أنه لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل نظراً لقوةبني سليم وهو زن.
- ٥ - جيش بقيادة عمرو بن العاص لقتال قضاعة ووديعة والحارث، ولم أغير على من قدر عدد أفراده، وأظن من تعداد الجيوش السابقة ومهمته أن تعداده لا يقل عن ألفي مقاتل.
- ٦ - جيش بقيادة خالد بن سعيد إلى مشارف بلاد الشام، ويمكنا تقدير عدده بألف مقاتل.
- ٧ - جيش بقيادة العلاء بن الحضرمي لقتال المرتدين في البحرين، ونستنتج من مهمته أنه في حدود ألفي مقاتل.
- ٨ - جيش بقيادة حذيفة بن محصن الغلاني لقتال المرتدين في منطقة عُمان، ونقدرها بألف مقاتل.
- ٩ - جيش بقيادة عرفة بن هرثمة، لقتال أهل مهرة، ونقدرها بألف مقاتل.
- ١٠ - جيش بقيادة المهاجر بن أبي أمية لقتال الأسود العنسي مدعى النبوة في اليمن (صنعاء)، وبعد الانتهاء من مهمته كلفه بمهمة ثانية هي التوجه إلى حضرموت للسيطرة على المتمردين فيها، ونقدرها بألف وخمسمائة مقاتل.
- ١١ - جيش بقيادة سويد بن مقرن لقتال المرتدين في تهامة، وربما بلغ تعداده ألف مقاتل.
- وإذا كانت كتب التاريخ لم تذكر تعداد كل الجيوش المذكورة، فإن لدينا من المعطيات ما يجعلنا نقارب الحقيقة في تحديد عدد كل جيش،

مثل معرفة تعداد بعضها من المراجع التي ذكرتها، والمقارنة بين المهمات وصعوباتها، ومعرفة القادة ومكانة كل منهم، ومعرفة عدد العدو أحياناً، أو عدد القتلى، فقد كان عددبني حنفة أربعين ألفاً<sup>(١)</sup>، وفيه مغalaة في رأينا، وقتل من المسلمين ما بين خمسمائة وستمائة<sup>(٢)</sup>.

يضاف إلى ذلك أن كتب التاريخ ذكرت ما سببته لاحقاً أن المسلمين حشدوا في معركة اليرموك على أقل تقدير سبعة وثلاثين ألف مقاتل.

وكان مجموع المقاتلين بعد انتهاء حروب الرّدّة على جبهات فارس والروم ما بين الخمسة وأربعين ألفاً والخمسة وخمسين ألفاً.

فإذا كان تقديرنا تعداد كل جيش صحيحاً يكون مجموع عدد المقاتلين (القوات المسلحة) في بداية عهد أبي بكر الذين استطاع تجنيدهم لحروب الردة ما بين اثنين وعشرين ألف مقاتل، وخمسة وعشرين ألفاً، ولا نظنه أكثر من ذلك، وهو عدد غير قليل، وكان بإمكانه توجيه الجيوش قبل عودة أسامة الذي لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، وما كان انتظار ذلك الجيش إلا لوجود كبار الصحابة والمهاجرين الأولين فيه<sup>(٣)</sup>. وتوزيعهم على الجيوش التي ستتوجه إلى محاربة المرتدين أمر ضروري؛ لأن وجودهم فيها يقوي الروح المعنوية للمجاهدين، ولتسليم بعضهم قيادة تلك الجيوش، وحتى لا يشغل جيش المسلمين في جبهتين في وقت واحد.

(١) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٦٦م، ج٦، ص٣٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٥.

(٣) ابن هشام، السيرة، م.س، ص٢٥٣.

## ما بعد الرّدّة

بعد انتهاء حروب الرّدّة وفراغ خالد بن الوليد من حرب اليمامة، أمره الخليفة أبو بكر بالتوجه إلى جهة العراق، والالتقاء بقائد الجبهة عياض بن غنم، وكلّف القائدين بأن يأذنا لمن يرغب بالرجوع، قائلًا لهما: «لا تستفتحوا بمتكاره»<sup>(١)</sup>.

وقد عاد أهل المدينة وما حولها. فأمر أبو بكر القائدين باستنفار من قاتل أهل الرّدّة من المسلمين، وألا يجندوا في جيشهما أحدًا كان قد ارتد عن الإسلام<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ من الأمرين حرص أبي بكر على أن لا يجبر أحدًا على القتال، وألا يكون في الجيش أحد واهن العقيدة. وقد استطاع خالد أن يجند ثمانية آلاف من ربيعة ومصر، وكان بقي من جيشه ألفان، فأصبح جيشه يتّالف من عشرة آلاف مقاتل، يضاف إليهم ثمانية آلاف يقودهم أربعة أمراء، هم: المثنى بن حارثة الشيباني، ومذعور بن عدي العجلي، وسلمي بن القين التميمي، وحرملة بن مريطة التميمي.

«فلقي هرمز قائد جيش الفرس بثمانية عشر ألفاً»<sup>(٣)</sup>.

أما جيوش فتح الشام فكان أولها جيش يزيد بن أبي سفيان، وكان تعداده سبعة آلاف مقاتل<sup>(٤)</sup>، وتلته جيوش أبي عبيدة، وشراحيل بن

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٣٤٦.

(٢) المصدر نفسه، وفي رواية ص ٣٤١: «ولا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو».

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

حسنة، وعمرو بن العاص، وعلقمة بن مُجَزْر، حتى بلغ تعداد جيوش فتح الشام سبعة وعشرين ألفاً<sup>(١)</sup>.

ووفقاً لهذه الروايات يكون تعداد جيوش المسلمين على الجبهتين خمسة وأربعين ألف مقاتل. وليس هذا العدد وحده ما كان باستطاعة الخليفة إعداده، بل كان باستطاعته نجدة هذه الجيوش، بما لا يقلُّ عن نصف هذا العدد من أهل المدينة وما حولها، وقبائل اليمن والجزيرة، باستثناء المرتدين الذين أصرَّ أبو بكر على عدم تشريفهم بالجهاد، كما ذكرنا آنفاً، ولشكِّه في أن يشكلوا طابوراً خامساً ضمن جيوش المسلمين.

واقتداءً بما جاء في الآية الكريمة في حق الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، إذ قال عَجَلَ مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: **فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَأَسْتَعِذُنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّمْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقْتَلُوا مَعِي عَدُوًا إِنَّكُمْ رَضِيَتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَلَفِينَ**<sup>(٢)</sup>.

وأما في معركة اليرموك فقد بلغ تعداد قوات المسلمين المشاركة في المعركة في إحدى الروايات، ستة وأربعين ألف مقاتل، بمن فيهم عشرة آلاف انتقلوا مع خالد بن الوليد من الجبهة الشرقية (جبهة فارس) دعماً لجبهة الشام<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٣٩٢، وجاء في فتوح البلدان للبلاذرى، م.س، ص ١٥: «وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الإمدادات حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسين، ثم تناَم جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً».

(٢) التوبة: ٨٣.

(٣) الطبرى، التاريخ، ج ٣، ص ٣٩٥.

وكانوا جيوشاً عدّة، تجمّعوا لملاقاة الروم في منطقة اليرموك جنوب بلاد الشام، فاقتصر عليهم خالد بن الوليد توحيد القيادة، إذ لا ينجح قتال جيش متفرق للقيادات، فوافق القادة كلهم على أن يتولى خالد قيادتهم<sup>(١)</sup>، فنظم الجيش في ذلك اليوم تنظيماً جديداً لم يألفه العرب، هو نظام الكراديس<sup>(٢)</sup>، وبلغ عدد الكراديس ما بين ستة وثلاثين إلى أربعين كرداً، فيكون بذلك عدد أفراد كل كرداً أكثر من ألف مقاتل.

في هذه الأثناء كانت جبهة فارس هادئة سوى بعض المناوشات، فاحتاج قائد الجبهة المثنى بن حارثة الشيباني إلى العون والتوجة، فأوكل إلى البشير بن الخصاچية قيادة الجيش وتوجه إلى المدينة ليستأذن الخليفة ويقنعه بضرورة قبول من تاب من أهل الردة وندم وحسن سلوكه في جيشه<sup>(٣)</sup>. فوصل المدينة وأبو بكر على فراش الموت، فأوصى خليفته عمر بن الخطاب بأن يسرع في نجدة المثنى.

وتوفي أبو بكر في الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ وجيوش المسلمين تتقدم على جبهة بلاد الشام، وتحضر للتقدم على جبهة فارس.

### عمر يستنصر أهل الردة

بعد وفاة أبي بكر عزل الخليفة الجديد عمر بن الخطاب القائد العام على جبهة بلاد الشام، خالد بن الوليد، وولى مكانه أبو عبيدة بن الجراح،

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٢) الكرداس: مجموعة كبيرة من الجنود تنتظم في تشكيل يشبه المربع ويُخضع لقائد واحد.

(٣) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٤١٤.

ثم أمره بإعادة من بقي من جند العراق إلى العراق، فتوجهوا إليه بقيادة هاشم بن عتبة، واستكمل عددهم لاحقاً إلى عشرة آلاف مقاتل<sup>(١)</sup>.

وكذلك استنفر عمر أهل الرَّدَّة، ووجههم إلى العراق والشام<sup>(٢)</sup>، وبخاصة أن جيش المسلمين خاض معركة الجسر الشهيرة على جبهة فارس بتسعة آلاف مقاتل<sup>(٣)</sup>، استشهد منهم أربعة آلاف، وترك الجبهة ألفاً.

ولما أراد الخليفة عمر أن يمدّهم بأهلي بجبلة، ثم كنانة، ثم الأزد، وتيم الرباب، وحنظلة، وبنو عمرو، وعبد قيس، وغيرهم من القبائل.

وفي تلك الفترة كان الفرس يعانون من اضطراب في السلطة، وخلاف سياسي أسفر عن اتفاق بعد تفرق على تولية (يزدجرد) حاكماً جديداً. فأخذ فور توليه يُعدُّ العدة لمقاتلة المسلمين الذين يغزون بلاده.

ولما علم الخليفة عمر بما يُعدُّه الفرس كتب إلى قواده ما يشبه أمر النفي العام، وأمر عمليات في الوقت ذاته في المصطلح الحديث:

«أما بعد، فاخرجوا من بين ظهراني الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحداً، ومُضْرِّ ولا حلفائهم، أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلا اجتلتتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجَدْ إذا جَدَ العجم، فلتلقوا جَدَّهم بجَدِّكم»<sup>(٤)</sup>.

وهذا أول أمر اطلع عليه يمكننا أن نطلق عليه «الاستنفار العام» أو

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٤٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٧٨.

«النفير العام»، يُكره فيه المتباطئ عن الالتحاق بالخدمة العسكرية، بالقوة على تأدية واجبه.

وسنعود إلى الحديث عن ذلك عند الحديث عن إلزامية التجنيد «الخدمة الإلزامية».

وأراد عمر إظهاراً لجديّة الأمر وخطورة الوضع أن يخرج بنفسه إلى العراق ليتولى قيادة الجيش على تلك الجبهة، إلا أن الصحابة أشاروا عليه بالبقاء في المدينة وتعيين قائد عسكري يقوم بالمهمة بدلاً عنه، ويكون جاهزاً لمدّه بما يحتاج من جنود وعتاد، لأن مقتل قائد الدولة ليس كمقتل قائد من قواه<sup>(١)</sup>، فاقتتنع بما أشاروا به عليه، وعيّن سعد بن أبي وقاص قائداً عاماً لقوات المسلمين على جبهة فارس.

وفي رواية للطبرى أنه أرسل معه أربعة آلاف مقاتل، ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن، وألفاً من سائر الناس<sup>(٢)</sup>. وهذا يدل بوضوح على أن بعض العرب المسلمين كانوا يُستنفرون ضمن قبائلهم، وبعضهم يُجمعون في تشكيل مؤقت، تحت إمرة قائد واحد، ولو كانوا من قبائل متفرقة.

ثم أمدَّ عمر سعداً بـاللَّفَيْ يماني وـاللَّفَيْ نجدي<sup>(٣)</sup>، حتى بلغ تعداد الجيش الذي شهد القادسية بضعة وثلاثين ألفاً<sup>(٤)</sup>، وقدر أحمد عادل كمال جيش القادسية باثنين وثلاثين ألفاً وثمانمائة مقاتل<sup>(٥)</sup>.

(١) العجلاني، عقيرية الإسلام في أصول الحكم، م.س، ص ٢٤٠.

(٢) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٤٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٨٧. وانظر ابن خلدون: التاريخ، م.س، ج ٢، ص ٩١٧ - ٩١٨.

(٥) كمال، أحمد عادل، القادسية، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٣٧.

أما ابن خلدون فيقول: «وسار سعد وبلغه في طريقه، بِزَرْ وَرْد [اسم مكان]، وأن المثنى مات من جراحه، انتقضت، وأنه استخلف على الناس بشير بن الخصاچية.

وكان جموع المثنى ثلاثة آلاف، وكذلك أربعة آلاف من تميم والرباب، وأقاموا. وعمر ضرب علىبني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم، فنزلوا في ثلاثة آلاف، وأقاموا بين سعد والمثنى، وسار سعد إلى سيراف فنزلها. واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً، ولم يكن أحد أجرأ على الفرس من ربيعة»<sup>(١)</sup>.

وبجمع أعداد كل فتنة يكون عدد جيش فتح العراق واحداً وأربعين ألفاً، وفقاً لرواية ابن خلدون.

وكتب عمر إلى سعد: «إذا جاءك كتابي هذا فعشّر الناس، وعرّف عليهم، وأمّر على أجنادهم، وعيّنهم، ومرّ رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدّرهم وهم شهود، ثم وجّههم إلى أصحابهم»<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ أن هذه الرسالة بمثابة أمر عمليات، تضمنت كيفية تعبئة القوات التي يقترحها الخليفة على قائد الجيش في جبهة محددة وهي جبهة فارس.

فجمع سعد قواته، وقسمها عشرة أقسام، ثم جعل لكل عشرة من الأعشار عريفاً، كما كان الحال في زمن رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>، وهي تقابل

(١) ابن خلدون: التاريخ، م.س، ج ٢، ص ٩١٧ - ٩١٨.

(٢) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٤٨٨.

(٣) المصدر نفسه.

الحضيرة في معظم تشكيلات الجيوش المعاصرة، وهي أصغر تشكيلة قتالية في معظم الجيوش وغالب الأحيان. وعيّن أمراء الأعشار، والأجناد، وحملة الريات، ولم يول أحداً من المرتدين.

وهذا كله يمكن أن نعدّ تنظيم القوات في وحدات، ثم تلاه وضع هذه القوات في تشكيل قتالي، فعيّن قادة المقدمة، والميمنة، والميسرة، والمؤخرة، والطلائع، والخيالة، والركبان على الإبل، وهم يماثلون اليوم عناصر الشؤون الإدارية، فأصبح بذلك سلّم القيادة كما يأتي:

القائد العام وهو سعد بن أبي وقاص، وخليفته خالد بن عرفة، ثم أمراء الأعشار، ويليهم أصحاب الريات، ثم رؤوس القبائل، ثم العرفاء.

ويلاحظ من مراسلات الخليفة عمر مع القائد سعد أن الخليفة كان هو القائد الأعلى للجيوش<sup>(١)</sup> ويبادر القيادة بالشكل الذي يرتئيه، ويُطلع على كل شاردة وواردة، حتى أنه طلب من سعد أن يكتب إليه المستجدات في كل يوم<sup>(٢)</sup>. وكان يعطي القائد العام للجيش في إحدى الجبهات أوامر عامة، ويترك له حرية التصرف في التفصيات، ومواجهة المستجدات، كما يترك له أيضاً حرية تعين القادة الفرعيين. و اختيار تشكيلات القتال.

ويلاحظ أنه حتى تلك المرحلة من تاريخ المسلمين، وعلى الرغم من انتشار جيوشهم في أجزاء واسعة من العالم شملت الجزيرة العربية ومعظم بلاد الشام، وببلاد ما بين النهرين، ووصول عدد المقاتلين زهاء ستين ألف مقاتل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، فإنهم لم ينشئوا معسكرات،

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه.

بل شبه معسكرات، وأنشئت متأخرة في زمن عمر كما بيئاته في مكانه من هذا البحث، ولم يفرضوا للجنود رواتب، واقتصرت موارد الجيش على نصيب الواحد منهم من غنائم الحرب، وأمكن ضبط ذلك بالاعتماد على أمرتين مهمتين:

**الأول:** صدق إيمان الجندي المسلم، فهو لا يحاول أخذ أكثر من نصبيه الشرعي من الغنائم.

فقد روى أبو عبيدة العنبري، قال: «لما هبط المسلمين المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قطُّ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لو لا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله، لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقررونني، ولكن أحمد الله وأرضي بثوابه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسألهم عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس... وقال سعد: والله إن الجيش لذوأمانة، ولو لا ما سبق لأهل بدر لقلت: وأيم الله - على فضل أهل بدر - لقد تبعت من قوم هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم»<sup>(١)</sup>.

**الثاني:** ضالة حاجات المقاتل المسلم مع مقدراته الجسدية العالية، فقد كان يكفيه لطعامه بضع تمرات وقليل من اللبن (الحليب)، ولا مانع لديه من افراش الأرض والتحاف السماء، فهو قد اعتاد على شظف العيش، وكل ما يهمه الاعتناء بسلامه، وعلف جواده، إن كان فارساً يملك فرساً، وكان على المقاتل أن يؤمّن سلامه ومركوبه وطعامه وشرابه.

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج٤، ص١٩.

## نشأة الأسطول العربي (سلاح البحرية)

دانت بلاد الشام لل المسلمين في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وأدرك الروم البيزنطيون أنهم لا قبل لهم بمواجهة المسلمين بـرًا. وكانوا أمة بحرية، فاعتمدوا مبدأ الإغارة على المدن الساحلية، بهدف إشغال المسلمين عن متابعة الزحف شمالاً، وإشعال نار الفتنة الداخلية بوساطة أعوانهم عن طريق الساحل، ومددهم بالمؤن والذخائر.

فأدرك والي الشام في زمن عمر، معاوية بن أبي سفيان، أهمية سلاح البحرية، فاستأذن الخليفة في إنشاء أسطول عربي إسلامي، يقطع الطريق على أسطول الروم، وينطلق إلى فتح الجزر القريبة من ساحل بلاد الشام، التي غدت قواعد انطلاق للأعداء وللقارصنة والمغامرين، ومركزاً تموين للأساطيل المعادية.

ولكن عمر بن الخطاب هاب ركوب البحر نتيجة فشل أحد قادته، وهو العلاء بن الحضرمي، الذي قاد غزوة بحرية باتجاه بلاد فارس، فكاد يهلك هو وقواته لو لا تداركه بقوات كبيرة أرسلها لنجده، وكانت تلك الغزوة أول غزوة بحرية، وكلفت قوات المسلمين خسائر فادحة، ما جعل عمر يتريث في الانتقال إلى ركوب البحار قبل تقوية جبهته الداخلية<sup>(١)</sup> ودراسة الأمر من مختلف جوانبه. فأرسل إلى واليه معاوية يأمره بعدم ركوب البحر، وبتقوية الموانئ وتحصينها، وتجهيزها بقوات كافية لمنع غارات الروم البحرية.

وتروي كتب التاريخ نقلاً بعضها عن بعض من دون تمحيص أن معاوية لجأ وألحَّ على عمر في أمر ركوب البحر وقال: «إن قرية من قرى

(١) الذي يتعمق في روایات الطبری يميل إلى هذا الظن.

حمص ليس مع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم» يقصد كلاب أهل قبرص ودجاجهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص، أن صفت لي البحر... إلى آخر الرواية، حيث يصفه له عمرو فيقول: «إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف... دود على عود»<sup>(١)</sup>، فلا يوافق الخليفة على ركوبه بناءً على ذلك الوصف<sup>(٢)</sup>.

ومن المعلوم أن صياح الديوك وعواء الكلاب لا يصل إلى مئات الكيلومترات، والمسافة بين قبرص والساحل السوري تزيد عن المئة كيلومتر، فما بالك بحمص أو قراها، ولا يتوقع من معاوية الكذب، وإن قصد حث الخليفة على الموافقة، فالخليفة عمر ليس من يسمح لولاته بالمغالاة تسهيلاً لأمر أو تعسيراً له.

وكذلك فإن البحر ليس من عجائب الدنيا غير المعروفة لأهل مكة، فالمسافة بينها وبين البحر ليست بعيدة، والطرق بين مكة والمدينة أحدها ساحلي، وكان المسلمون يسلكونه أحياناً، وال المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ركبوا البحر، ولا ريب أنهم حدثوا الصحابة عن البحر ورکوبه، وكذلك كانت للعرب أساطير تجارية... وما كان في غالب الظن نهي عمر عن إنشاء أسطول بحري حربي، وعن الغزو بحراً، لجهله بالبحر، وإن صحت رواية سؤاله عمرو بن العاص، فما ذلك إلا من باب الاستشارة والاستفسار عن بحر الشام (الأبيض المتوسط) وخطورة ركوبه.

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٣، ١٩٦٧م، ص ٤٤٩.

(٢) الطبرى، التاريخ، م.س، ج٤، ص ٢٥٨ وما بعدها، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س، ج ٣، ص ٩٥.

وقد تقيّد معاوية بأوامر الخليفة، ولم يُنشئ أسطولاً حتى انتقلت الخلافة إلى عثمان، فعاود المحاولة مع الخليفة الجديد، فوقف في بداية عهده موقف عمر، ولكن معاوية استمر في مراجعته بهذا الخصوص حتى انتزع منه موافقته، بعد أن رأى قوّة شوكة المسلمين ورسوخها في الأراضي التي فتحوها، واقتنع بضرورة إنشاء أسطول عربي إسلامي، ومع ذلك اشترط على معاوية شرطاً، فقال له: «لا تنتخب الناس، ولا تُقرّع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنّه. فعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي»<sup>(١)</sup>.

واستفاد معاوية من ورشات صناعة السفن التي كانت في ساحل بلاد الشام، والتي كان الرومان قد أنشأوها في عكا وصور ولم يدمروها تدميراً كاملاً عند انسحابهم.

ولما نجد في المصادر التي اطلعنا عليها وصفاً دقيقاً لأشكال السفن ومواصفاتها في ذلك العهد، ولا ما يشير إلى أعدادها وتسليحها، وما نميل إليه أن مهمتها كانت تقتصر على نقل المواطنين الذين كانوا يقاتلون بها برأً. وإن تواجهت سفن أسطولين يجري تبادل الرمي بالسهام ويمكن أن يقفز بعض المقاتلين إلى مراكب الأعداء ويقاتلون على المراكب كما لو كانوا يقاتلون على الأرض، وبالأسلحة ذاتها<sup>(٢)</sup>.

وأول غزو بحري للMuslimين كان غزو جزيرة قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وقد افتتحها المسلمين صلحًا في عهد عثمان سنة ٢٨هـ. وهذا

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٤، ص ٢٦٠.

(٢) للتوسيع في تطور الأسطول العربى انظر: الهندي، إحسان، الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية بدمشق، بلا طبعة وبلا سنة، ص ١٧١ وما بعدها.

يدل أيضاً على نمو سريع لأسطول دولة المسلمين، إذ غدا يصول ويتجول في البحر الأبيض المتوسط، ويستطيع الدفاع والهجوم، وله من القوة ما أرعب أهل قبرص وجعلهم يصالحون المسلمين على الجزية، سبعة آلاف ومئتي دينار سنوياً<sup>(١)</sup>، «ويؤدون إلى الروم مثلها... وعليهم أن يؤذنوا [يُعلموا] المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم»<sup>(٢)</sup>.

ولما نقضوا عهدهم سنة ٣٢ هـ وأعانوا الروم، غزاهم معاوية مرة جديدة سنة ٣٣ هـ في خمسة مركب، وفتح الجزيرة هذه المرة عنوة، وأجرى الاتفاق السابق بالقوة، ونقل إليها اثنى عشر ألفاً من المسلمين المسجلين في الديوان «ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك»<sup>(٣)</sup>.

هكذا ولد سلاح البحرية الإسلامي. وكغيره من الأسلحة تطور بسرعة، كما سنبين في الفصول القادمة، حتى أصبح سيد البحر الأبيض المتوسط لمدة من الزمن، مع أن تعداده في غالب الظن لم يزيد عن ٢٠٠ سفينة في نهاية العهد الراشدي، وربما أكثر بقليل.

ونميل إلى وجود مبالغة في عدد السفن التي غزا بها معاوية قبرص، وذلك لأن معركة ذات الصواري التي ذكرها ابن الأثير في أحداث سنة ٣١ هـ، وقال في رواية إنها حدثت سنة ٣٤ هـ، وسببها أنه لما رأى الروم سيطرة العرب المسلمين على شمالي إفريقيا، حشدوا أسطولاً كبيراً، قيل إنه ٥٠٠ أو ٦٠٠ سفينة، بحسب الطبرى وابن الأثير، وأرادوا استرجاع

(١) البلاذري، فتوح البلدان، م.س، ص ٢٠٨.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، تحرير: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ج ٤، ص ٢٦٢.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، م.س، ص ٢٠٩. والكامن في التاريخ، م.س، أحداث سنة ٢٨ هـ.

الاسكندرية، عروس البحر المتوسط في تلك الأيام، وخرج على رأس الأسطول كما ذكر الطبرى وابن الأثير وغيرهما: ابن هرقل قسطنطين، وتوجه إلى الاسكندرية فتصدى له أسطول المسلمين العرب، وتلاقى الطرفان في منطقة ذات الصواري بالقرب من الاسكندرية، ولم يزد تعداد سفن المسلمين عن مائتي سفينة هي مجموع السفن التي خرجت من سواحل بلاد الشام بقيادة بسر بن أرطأة، والسفن التي خرجت من مصر بقيادة عبد الله بن أبي سرح، الذي تولى القيادة العامة، وانتهت طلب الروم أن تكون المعركة في الماء، فتقدم بسفنه حتى لامست سفن الروم، وقفز رجال أشداء من المسلمين إلى مراكب الأعداء، وربطوا المراكب بعضها البعض، ودارت بين الطرفين معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون، وهرب قسطنطين متخناً بجراحه.

وُعرفت تلك المعركة بـ«ذات الصواري» إما نسبة إلى المنطقة، أو لكثره صواري المراكب التي خاضتها، وبعد تلك المعركة أصبح العرب المسلمون قوة يحسب لها حساب في البحر الأبيض المتوسط<sup>(١)</sup>.

### انقسام القوات المسلحة في أواخر العهد الراشدي

لم يختلف وضع القوات المسلحة في بداية عهد عثمان عنها في أواخر عهد عمر رضي الله عنهما، فقد استمرت في النمو، واستمرت الفتوحات والغزوات، ففتحت طبرستان<sup>(٢)</sup>، ووقعت غزوة ذات الصواري التي بلغ

(١) للاستزادة من المعلومات عن معركة ذات الصواري، انظر: الطبرى، م.س، أحداث سنة ٣١هـ. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س، أحداث سنة ٣١هـ.

(٢) الطبرى، التاريخ، م.س، ج٤ ص٢٦٩. والبلاذري، فتوح البلدان، م.س، ص٢٧٩.

عدد مراكب المسلمين فيها خمسة مركب<sup>(١)</sup>، وفتحت أرمينيا<sup>(٢)</sup>، وقتل يزدجرد آخر ملوك الساسانيين في مرو، فانتهت بذلك الدولة الفارسية المحسوبة إلى الأبد<sup>(٣)</sup>، وجرى فتح بلاد شمالي إفريقيا<sup>(٤)</sup>.

وقد أدى تقدم عثمان في العمر، واتساع رقعة دولة المسلمين، والتحولات الاجتماعية نتيجة كثرة الأموال والاختلاط بالشعوب الأخرى، ونشأة الفئات السرية من بقايا يهود ومجوس، أظهروا الإسلام وأبطلوا النفاق، بالإضافة إلى عوامل أخرى. كل ذلك نجم عنه فتنـة أدّت إلى مقتل الخليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه<sup>(٥)</sup>... وبائع المسلمين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة، ثم ارتأى بعضهم، ومنهم بعض كبار الصحابة، مثل: عائشة أم المؤمنين، وطلحة، والزبير وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، أنه يجب على الخليفة الجديد الاقتراض فوراً من قتلة عثمان. وأدى الخلاف بينهم من جهة وبين الإمام علي، الذي كان يرى تأجيل ذلك، من جهة أخرى، إلى وقعة الجمل التي قُتل فيها عشرة آلاف مقاتل نصفهم من جيش علي، ونصفهم ممن كان مع عائشة<sup>(٦)</sup>.

ورفض والي بلاد الشام، معاوية بن أبي سفيان مبايعة علي قبل

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٤ ص ٢٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، م.س، ص ٢٩٣، ولعل الرقم مبالغ فيه ولم تزد مراكب المسلمين عن ٢٠٠ مركب، وانظر: نشأة الأسطول العربي الإسلامي ص ٩١ من هذا الكتاب.

(٥) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٤ ص ٣٤٨. وللتوضيع انظر: سيف بن عمر، الفتنة ووقعة الجمل، إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط ٩، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م، ص ١٤ وما بعدها.

(٦) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٤ ص ٥٣٩.

الاقتراض من قتلة عثمان، فانقسم المسلمون وانقسمت القوات المسلحة، ونشبت حرب أهلية بين الطرفين.

ونستنتج من تتبع روايات تلك الفتنة أنه لم يكن في المدينة عاصمة دولة المسلمين، قوات لحماية الخليفة رئيس الدولة، بل لم يكن من مهمات القوات المسلحة تأمين الحماية الشخصية للخليفة، رئيس الدولة.

وبما أن قوات المسلمين المسلحة كانت جموع المسلمين القادرين على حمل السلاح، فقد انقسمت هذه القوات، بانقسام المسلمين، فوقفت جماعة مع علي، وجماعة مع معاوية، ووقفت جماعة كبرى على الحياد بين الطرفين. وكانت السمة الغالبة لذلك الانقسام السياسي هي العصبية القبلية. غالبيةبني هاشم وقفوا مع علي، وغالبيةبني أمية انحازوا إلى معاوية، وكان معه أيضاً معظم أهل الشام، بحكم ولاليته عليهم مدة طويلة من الزمن وثقتهم به، بينما انحاز معظم أهل العراق إلى علي. ووقيعت بين الطرفين معركة صفين. ونجد في تاريخ الطبرى عند ذكره المعركة ما يشير إلى عدد قوات علي في قوله:

لأصبحَ العاصي ابنَ العاصي سبعينَ ألفاً عاقدِيَ النواصي<sup>(١)</sup>

وانتهت المعركة في ١٣ صفر سنة ٣٧هـ بالتحكيم<sup>(٢)</sup>، ونتج عن التحكيم انسحاق آخر في صفوف أنصار علي أدى إلى ظهور فرقة الخوارج، التي حاولت لاحقاً اغتيال علي ومعاوية وعمرو بن العاص،

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج٤، ص٥٦٣. والمقصود بال العاصي عمرو بن العاص، قائد جيش معاوية في صفين.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٧.

والتحكيم هو: اختيار كل طرف شخصاً أو أكثر، يبحثان في أسباب الاختلاف ويحكمان في القضية المختلف عليها. وقد اختار علي أبا موسى الأشعري، واختار معاوية عمرو بن العاص، ويمكن الرجوع إلى قصة التحكيم في معظم كتب التاريخ.

فنجحت في اغتيال علي، وأخفقت في اغتيال الآخرين<sup>(١)</sup>. وبعدهما بايعد شيعته [أي: مناصروه] ابنه الحسن، ارتأى أن جمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة خير له وللمسلمين، فتنازل عن الخلافة لمعاوية وبايده في الخامس من ربيع الأول سنة ٤١ هـ<sup>(٢)</sup>. وبذلك انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبدأ عهد جديد مختلف، هو عهد بني أمية.

ونلاحظ من هذا العرض المكثّف أن قوات المسلمين المسلحة في أواخر عهد الخلفاء الراشدين كانت مشغولة بنفسها عن أعدائها، ما أدى إلى توقف الفتوحات، وطمع الأعداء في بلاد المسلمين، ولكنهم لم يستطعوا تحقيق أيّة مكاسب تذكر، لأن طرفي النزاع لم يهملوا الأخطار الخارجية، ولم يتآمر أحدهما مع الأعداء على الطرف الآخر.

وحتى تاريخ انتهاء ذلك العهد لم يشكّل المسلمون جيوشاً نظامية بالمعنى المعروف، بل كان الشعب كله مسلحاً ومدرّباً، وكلُّ قادر على القتال كان بإمكان الدولة دعوته إلى الجهاد في أي وقت كان، وفي أي مكان، فيلبي النداء. والديوان الذي وضعه الخليفة عمر سجّل فيه المسلمين كلّهم، وخصص لهم أعطيات من دون استثناء كما ذكرنا في موضعه.

وحيث إن هذا الوضع استمر مدة من الزمن خلال العهود التي تلت عهد الخلفاء الراشدين، فسنكتفي في متابعتنا تطور المؤسسة العسكرية خلال التاريخ الإسلامي بذكر التحولات التي كانت تطرأ عليها مع تطور الزمن في كل عهد من العهود.

(١) الطبرى، التاريخ، م.س، ج ٥ ص ١٦٣، وقيل: كان ذلك في الخامس من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ.

(٢) المصدر نفسه، وقيل كان ذلك في الخامس من جمادى الأول سنة ٤١ هـ.

## الباب الثاني

# تطور المؤسسة العسكرية في العهدين الأموي والعباسي





## الفصل الأول

### العهد الأموي



#### تمهيد

بقيت القوات المسلحة في دولة المسلمين منقسمة طيلة عهد الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، نتيجة الفتنة التي نشأت عن مقتل الخليفة عثمان، ولا خلاف الصحابة حول الاقتراض من قاتله الذي أدى إلى وقعة الجمل - كما ذكرنا سابقاً -، ثم رفض والي الشام معاوية بن أبي سفيان مبايعة الخليفة الجديد. واستمرت على تلك الحال في بداية عهد معاوية أول الخلفاء الأمويين.

ومع أن علياً كان يتوقع الاستشهاد في أي لحظة، فقد رفض أن يستخلف أحداً، وقال لمن نصحه بذلك: «أترككم كما ترككم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»<sup>(١)</sup>.

ولما اغتاله عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري، بايع أصحابه أكبر أولاده، الحسن بن علي، في أواخر رمضان سنة ٤٠ هـ<sup>(٢)</sup>. وكان أول مبايعيه أمير أذربیجان قيس بن سعد بن عبادة، وكان تحت إمرته أربعون ألف مقاتل<sup>(٣)</sup>. وألحَّ هو وبعض مؤيدي الحسن عليه ليتوجه

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعرف، بيروت، ط١، ١٩٦٦ م، ج ٢ ص ٣٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٨ ص ١٤.

(٣) الطبراني، التاريخ، م.س، ج ٥ ص ١٥٨، وابن كثير، المصدر نفسه.

إلى الشام لمقاتلة معاوية، فنزل عند رغبتهم، ولكنه لما رأى تفكك جيشه وتفرقه فضل حقن دماء المسلمين ومصالحة معاوية، فكتب إليه في ذلك.

وكان معاوية يتلهف إلى المصالحة ويسعى إليها، فحضر بنفسه إلى الكوفة، وخطب الناس، وأخذ بيعتهم، وسمّي ذلك العام، عام ٤١هـ، الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين فيه<sup>(١)</sup>.

ولم يكن معاوية بعيداً عن السلطة أو غريباً في بلاد الشام، فقد تولى إمارتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان وبعدما بايعه الحسن، دانت له جميع بلدان المسلمين، وانحصرت المعارضة الفعلية في الخارج الذين لم يجد معاوية صعوبة كبيرة في ترويضهم واستيعابهم.

وقد امتد العهد الأموي من سنة ٤٠هـ لغاية سنة ١٣٢هـ، ولئن استقرت أمور الدولة في زمن معاوية، فهي لم تثبت أن اضطربت بعد وفاته، واستمرت مضطربة إلى نهاية العصر الأموي تقريباً، حين اجتاحته ثورة شعبية أدّت إلى نقل السلطة إلى العباسيين.

وقد حاول معاوية تدارك أي انقسام قد يحصل بوفاته بين المسلمين، فأخذ البيعة لابنه يزيد في حياته، ولما تسلّم يزيد الحكم ثار عليه الحسين بن علي، وحصلت بينه وبين جيش يزيد معركة كربلاء، وأسفرت عن استشهاد الحسين، ما أدى إلى نكء الجراح واتساع الهوة بين المسلمين.

كذلك امتنع عبد الله بن الزبير في مكة عن بيعة يزيد، وبقيت بلاد المسلمين منقسمة حتى زمن عبد الملك بن مروان الذي بُويع سنة ٦٥هـ،

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، م.س، ج ٨ ص ٢١.

فأرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة، فحاصرها وتغلب على ابن الزبير وقتلها. وتوحدت بلاد المسلمين مرة أخرى وانصرفت جيوشهم إلى الفتح في المشرق والمغرب على الرغم من انشغال بعضها في محاربة الخوارج الذين استمروا يؤردون الحكم الأموي حتى نهايته.

يتبين لنا من هذا العرض أن قوات المسلمين في العهد الأموي تحكمت فيها عوامل مختلفة، جعلتها تنشغلمرة بقتال بعض الآخر، وتنصرف أخرى إلى الجهاد في سبيل الله، ومتابعة الفتوحات.

وازداد الصراع على السلطة بحيث أصبح الوصول إلى الحكم هدفاً، ولم يعد وسيلة لتحقيق غاية الإسلام.

ومع ذلك بقي كثير من المسلمين على ما عاهدوا الله عليه، لا يهمهم إلا نشر الدعوة، والجهاد في سبيل الله.

### **تغير أهداف الحرب**

لم يتغير تعداد القوات المسلحة في بداية العهد الأموي، ولكنهم أصبحوا جيوشاً بعد أن كانوا جيشاً واحداً، وقلّ عدد المنخرطين في القتال عن عدد المسلمين، إذ أحجم كثيرون عن القتال؛ لأن هدف الحرب لم يعد القتال في سبيل الله، بل القتال نصرة لأحد الفريقين المتنازعين الرئيين، بينما اتخذ الفريق الثالث الفاعل، وهو الخوارج، موقفاً دينياً متشددًا، وحارب الفريقين الرئيين، وكان يقاتل لفرض رأيه، ويُكفر كل من لا يوافقه معتقداته.

ويمكننا أن نطلق على المرحلة الأولى من حكم الأمويين مرحلة الحرب الأهلية، أو مرحلة الصراع على السلطة التي استمرت حتى تاريخ تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة في ربيع الأول سنة ٤١هـ، بعد أن لخص

ما آلت إليه أهداف الحرب قال: «إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسیركم في صفين ودينكم أمم دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمم دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفتين تكون له، وقتل بالنهر وانطلقو بثاره، وأما الباقي فخاذل، وأما الباقي فثائر...»<sup>(١)</sup>.

وبعدما استقرت الأمور لمعاوية انصرف إلى تنظيم شؤون دولته، وأولى القوات المسلحة اهتماماً خاصاً، وتفرّغ لمتابعة الفتوحات، وساعده في ذلك استمرار مدة حكمه ما يقارب عشرين سنة من ٤١ إلى ٦٠ هـ (٦٨٠ - ٦٦١).

واعتمد في إدارة دولته سياسة شبيهة في العصر الحاضر باللامركزية الإدارية الموسعة. واعتمد ولادة أكفاء، فقد كفاه زياد بن أبيه خطر الخوارج والشيعة في العراق، وذلك بعد أن ألحقه معاوية بن أبي سفيان بن منه، وعدّه أخاً له من أبيه، وولاه العراق، كما عهد بإدارة مصر إلى عمرو بن العاص. والاثنان من الصحابة القادة البارزين، والدهات المعروفين.

### لمحة عن الفتوحات في عهد معاوية

بما أن الجبهة الشرقية كانت غير مستقرة نتيجة ما كان يشيره الشيعة والخوارج من قلاقل فقد كانت الفتوحات فيها قليلة، كما بقي خطر البيزنطيين وحلّمهم بالعودة إلى سورية قائماً. وكان معاوية مدركاً لأهدافهم. فعمد إلى تنظيم دفاعات ثابتة لحماية الحدود والشواطئ، وحاول فتح القسطنطينية عاصمة البيزنطيين لإبعاد خطرهم عن بلاده نهائياً، فوجّه إليها جيشاً كبيراً سنة ٤٩ هـ/٦٦٩ بقيادة فضالة بن عبيد

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م، ج ٣، ص ٤٠٦.

الأنصاري، فحاصر المدينة، ولم يستطع فتحها<sup>(١)</sup>، فكرر معاوية المحاولة بجيش أكبر سنة ٥٤هـ/٦٧٤م فحاصر المدينة سبعة أعوام<sup>(٢)</sup> حتى سنة ٦٠هـ/٦٨٠م، واقتصر الحصار على جهة البحر بعد أن أصبح الأسطول العربي قوياً لا يستطيع منازعته أي أسطول آخر في المتوسط، ومع ذلك فشل الحصار، لأسباب كثيرة، أهمها أن المدينة بقيت مفتوحة من جهة البر، وتأتيها الإمدادات من تلك الجهات، وفي سنة ٦٠هـ/٦٨٠م شعر معاوية بدنو أجله فأصدر أوامره برفع الحصار.

وفي زمانه تقدمت قوات المسلمين في شمال إفريقيا، وفي البحر، حتى احتلت قوات المسلمين الجزر القريبة من ساحل بلاد الشام.

ويعد معاوية «أبو الأسطول الإسلامي»، ومؤسس ديوان الخاتم وديوان البريد، ومنظم الدواوين التي سبقته، وهي ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل.

وال مهم بالنسبة لديوان الجند هو ديوان الخاتم، فختم الرسائل بالشمع - أو ما يشبهه - بخاتم الخليفة، يساعد في الحفاظ على سرّيتها. وقبل أن يتوفى الله معاوية أوصى لابنه يزيد بولاية العهد، وما إن تسلم يزيد الحكم حتى انقسم العالم الإسلامي، وعادت الحرب الأهلية كما ذكرنا سابقاً.

وبما أن غاية بحثنا ليست سرد الفتوحات؛ بل تطور المؤسسة العسكرية فسنستعرض ما أدخله الأمويون من تنظيمات على المؤسسة العسكرية وطرائق عملها من دون التوسع في الفتوحات.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س، أحداث سنة ٤٩هـ.

(٢) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، بيروت، ط٧، ٢٠١٦م، ص٣٤.

## تطور القوات المسلحة في العهد الأموي

لم يتغير كثيراً عدد القوات المسلحة في العهد الأموي عنه في العهد الراشدي، لأنه كما ذكرنا سابقاً كان مجموع المسلمين القادرين على القتال يشكلون جيش المسلمين وقواتهم المسلحة، ولكن الذي تغير هو أنها كانت موحدة، تشكّل جيشاً واحداً هدفها الجهاد في سبيل الله، فأصبحت جيوشاً يقاتل بعضها البعض الآخر.

وانتشر شراء الولاء، للظهور على المنافسين، والظفر بالسلطان، ومع ذلك فقد بقي هاجس الفتح قائماً في أوقات هدوء الحروب الداخلية، كما فرض الدفاع عن حدود الدولة وسائل دفاعية تتناسب مع تلك المرحلة.

فعلى صعيد التجنيد ظهر التجنيد الإلزامي، عند الضرورة، وجرى استحداث جيش نظامي<sup>(١)</sup> إضافة إلى المتطوعة. الذين غالباً ما كانوا يتمركرون في الحدود، ويرابطون في الشغور.

ويرى بعض المؤرخين أن الناس تقاعسو عن الجهاد بعدما استقر الأمر للأمويين ومالوا إلى العمل في الزراعة والتجارة والاستقرار، ولما ولـي عبد الملك بن مروان قيادة الجيش أخذ يجبر الناس على الالتحاق بالقوات المسلحة «ثم صار التجنيد سنة، وأصبح الجنـد الإسلامي فـتـين: المرتزقة والمتطوعة، وكلاهما عـرب يرجعون في أنسابـهـم إما إلى قـحطـان وـهـمـ الـيمـنـيـةـ، أو إلى عـدنـانـ وـهـمـ الـمضـرـيـةـ، وفيـهـمـ جـمـاعـةـ منـ الـموـالـيـ أوـ الـعـبـيدـ»<sup>(٢)</sup>.

واقتضى نظام الدفاع تطوير النظام القائم واستحداث نظم جديدة.

(١) يطلق عليهم في كتب التاريخ المرتزقة.

(٢) زيدان، جرجي، التمدن الإسلامي، م.س، ج ١ ص ١٧٠.

فبعدما فتح المسلمون بلاد الشام، والعراق ومصر وفارس وأصبحت بلادهم متراوحة الأطراف وحدودهم تمتد آلاف الكيلومترات، كان عليهم أن يحموا تلك الحدود من هجمات الأعداء وبخاصة الروم الذين ظلوا يحلمون بالعودة إلى البلاد التي فقدوها.

وكانوا قد قسموا البلاد من زمن الخليفة عمر إلى أجناد بحسب الأقاليم، وبدؤوا في تجهيز المدن التي فتوها، والتي كانت على حدود الدولة لتشكل نقاط دفاع دائم، ثم تطور ذلك النظام في زمن الأمويين. وكان يطلق على المدينة الحدودية التي تقوم بالدفاع عن الدولة اسم «ثغر».

والشغور منها البحريّة ومنها البحريّة، والبحرية هي شغور الشام ومصر، وأشهر الشامية من الشمال: طرسوس، فأدنة، فالünsصيصة، وعين زربة، والكنيسة، والهارونية، وإياس، ونقايلس. وأشهر الشغور المصرية رفح، ودمياط، والسكندرية.

ويلي شغور الشام من الشمال شغور الجزرية، نسبة إلى الجزيرة، وأولها مرعش، ثم الحدث، ثم شغور متابعة إلى ثغر شميشاط، ثم مالطية. ومنها كانت المغازى، وعواصم هذه الشغور (الجزرية) دلوك، ورغبان، ومنبج<sup>(١)</sup>.

كما أنشأ الأمويون مدنًا عسكرية إضافة لما أنشئ في زمن الخلفاء الراشدين، مثل: واسط في العراق<sup>(٢)</sup>، وشيراز في بلاد فارس،

(١) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، م.س، ص ٢١٤.

(٢) قيل إن السبب في بناء «واسط» سنة ٨٣ هـ أن الحجاج ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان، فعس克روا في «حمام عمر»، وكان فتنى من أسد حديث عهد بعرس، فأتى أهله =

والمنصورة في السند، ومرج في بلاد ما وراء النهر، وأذربيجان،  
ومراغة، وأردبيل<sup>(١)</sup>.

«وبلغت حامية البصرة على عهد سليمان بن عبد الملك أربعين ألف جندي، وحامية الكوفة سبعة آلاف جندي»<sup>(٢)</sup> ثم بعث إلى هذين المعسكرين عشرة آلاف جندي.

وهكذا فقد نظم الأمويون الدفاع عن حدود دولتهم، فرمموا الحصون القديمة، ودعموا التغور بالسلاح والرجال، وشجعوا المسلمين على المرابطة فيها وفي القلاع والمحصون المواجهة للعدو، ومع أن معظم المرابطين من المتطوعة، فقد أنفقوا الكثير من الأموال على تنظيم الدفاع، ولم يهملوا الهجوم، وكان لهم غزوة في الصيف أو غزوتين، وتسمى غزوة الصيف «صائفة»، وغزوة في الشتاء وتسمى «شاتية».

هذا بالإضافة إلى متابعة الفتوحات في الشرق والغرب كلما هدأت الحروب الداخلية.

ليلاً. وبينما هو في المنزل جاء رجل من أهل الشام سكران يطرق الباب طرقاً شديداً، فشكّت المرأة لزوجها أن الرجل يفعل كل ليلة هكذا، فأمرها أن تفتح له، فلما دخل قطع رأسه، وقال لامرأته: أخبري الحجاج غالباً بالحقيقة، ولما أخبرته قال لرؤساء الشامي: ادفنوا صاحبكم، ثم نادى مناديه: لا ينزلن أحد على أحد، واخرجوا فعسکروا، وبعث رواداً يرتدون له منزلة، حتى اختار مكاناً احتضن فيه واسط. الطبراني، م.س، ج ٦ ص ٣٨٤.

(١) الفرغولي، جهادية، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ)، نشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ط١، سنة ١٩٨٦م.

(٢) الدقدوقي، رفيق، الجنديّة في عهد الدولة الأمويّة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ٢٠٤.

## تطور الأسلحة في العهد الأموي

وأما التطور في الأسلحة، فقد كان كبيراً في مقاييس زمانهم، ويعود الفضل إلى الأمويين في إنشاء الأسطول الإسلامي، فالعرب الذين لم يعرفوا الأساطيل قبل حكم الأمويين، أصبح أسطولهم سيد البحر المتوسط، وغدوا يحاصرون القسطنطينية بحراً.

وأما في ميدان الأسلحة البرية فقد اقتبسوا من الأعاجم معدات الحصار ومنها المنجنيق، والدبابة، والكبش، والنار اليونانية.

### المنجنيق

لم يعرف العرب المنجنيق قبل العصر الأموي، وفي بعض الروايات أن سلمان الفارسي صنع منجنيقاً استعمله المسلمون في حصار الطائف، وأن المسلمين وجدوا لدى اليهود عندما فتحوا بعض حصونهم منجنيقاً ودبابات. وإن كانت هذه الروايات صحيحة أو مختلفة فلا شأن لها في بحثنا لأنها حالات نادرة.

والمنجنيق عبارة عن آلة حصار، منها أنواع عدة يمكن بوساطتها قذف المناطق الممحونة بالصخور والأحجار لدهمها، وقصف المواد المشتعلة إلى داخل الحصون لحرقها، وقتل حماتها<sup>(١)</sup>.

أما بقية الأسلحة فقد تحدثنا عنها سابقاً، ولا ضرورة لإعادة الحديث عنها.

(١) للتعرف على أنواع المنجنيقات انظر: ثابت نعمان، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ١٩٠ وما بعدها.

وزيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، م.س، ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها.

## الفصل الثاني

### العهد العباسي



#### تمهيد

جاء انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين نتيجة ثورة عارمة غيرت مجرى التاريخ الإسلامي.

فالتنافس بين القبائل العربية قديم، وربما كان أشد وأقوى بين أبناء العمومة، ولهذا عدّ الأمويون ظهور النبي من بني هاشم قد منحهم فضلاً وتقدماً عليهم، ومع ذلك لم يسلموا لهم بالقيادة بعد موت النبي ﷺ، واستطاعوا انتزاع الخلافة بالقوة وحكموا معتمدین على العرب وبخاصة من أقربائهم وأتباعهم ومن والاهم من عرب بلاد الشام، وساروا على نهج الخلفاء الراشدين عندما استقرت لهم الأوضاع في متابعة الفتوحات، فتوسعت رقعة الخلافة الإسلامية، ودخل في الإسلام أقوام مختلفة وشعوب متعددة، بعضها اقتناعاً وبعضها مرغماً تحصيلاً لمنفعة أو للتخرير من الداخل ضد الإسلام، وضد العرب على وجه الخصوص. ولم يستطع خلفاء بني أمية اكتساب تأييد هؤلاء المغلوبين، وبخاصة الخراسانيين الذين وجد فيهم الهاشميون من بني العباس عبد المطلب بيئة صالحة لنشر دعوتهم المناوئة للأمويين بينهم.

فكان قادة الثورة عباسيون، يؤيدهم الطالبيون، الذين ظنوا أنهم ورثة الأمويين وأصحاب الحق بالخلافة، ولكن وقودها كان من الخراسانيين. وأدت الحرب الأهلية التي نشبت في أواخر الحكم الأموي إلى انتصار العباسيين الذين فتكوا بالأمويين فتكاً لا علاقة له بالعقيدة، بل يخالفها، فقد كانت الحرب جاهلية إلى أبعد الحدود، ودخلت البلاد في حروب واضطرابات نتيجة إقصاء الطالبيين الذين كانوا يحلمون باستلام الخلافة، فإذا بأبناء عمومتهم يبعدونهم، ونتيجة نفوذ غير العرب ومحاولات الخلفاء استعادة السلطة منهم، وبخاصة الفرس الذين شكلوا قوة الثورة، فقد بقي عهد العباسيين، على الرغم من طول مده، يعني من الخلافات والثورات والاضطرابات. وبما أن بحثنا يقتصر على تطور المؤسسة العسكرية فلن نتطرق إلى التفاصيل السياسية إلا في ما يخص البحث.

### **القوات المسلحة في العهد العباسي**

عندما هُزم الأمويون انهارت مؤسسات الدولة ومن بينها القوات المسلحة. وعممت الفوضى، ولم يعد ثمة قوات مسلحة نظامية. واحتاج العباسيون إلى الجندي، فاستعنوا بالأجانب، وكان أول من استعنوا به الخراسانيون، لأنهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم بقيادة أبي مسلم الخراساني، وكانت فرق الجندي في أيام المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، ثلاثةً: اليمنية، والمصرية، والخراسانية، ثم أضيف إليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص، اتخذها الخلفاء خوفاً من أعدائهم<sup>(١)</sup>.

---

(١) زيدان، جرجي، م.س، ص ١٧٠ وما بعدها.

## عدد الجنود

في بداية العهد العباسى لم يعد ثمة وجود لديوان الجند، وليس من الواضح عدد القوات المسلحة، فالمسلمون منقسمون، قسم ثائر مع العباسيين، وقسم يدافع عن الأمويين ويؤيدتهم، وقسم ثالث نأى بنفسه عن القتال. ومن الطبيعي أثناء الثورة صعوبة إحصاء المقاتلين. وبعدما استقر الوضع للعباسيين أعادوا تنظيم ديوان الجند، ولكنهم كانوا شديدي الحرеч على سرية أعداد جيشهم، فلا يمكن الركون إلى عدد صحيح معين، والذين اهتموا في هذا الموضوع عمدوا إلى الخرص والتتخمين اعتماداً منهم على ما أورده المؤرخون في بعض مؤلفاتهم من أعداد هي في الواقع تقديرية، حتى من قبل المؤرخين الذين ذكروها في معرض ذكرهم الغزوات أو المعارك والوقعات.

لكن ما لا ريب فيه أن القوات المسلحة في زمن العباسيين كانت كبيرة تبعاً لاتساع رقعة الدولة وازدهارها ودخول أمم كثيرة في الإسلام، ولاهتمام العباسيين بالدفاع عن رقعة بلادهم الكبيرة وحفظ الأمن فيها، وكرمهم في أعطيات الجند، فقد جاء في كتاب الجنديّة في الدولة العباسية «وفي سنة ١٩٠هـ في خلافة الرشيد أيضاً حملت الجيوش العباسية والرشيد في طليعتها على هرقلة، وكانت عدّة هذه الجيوش ١٣٥٠٠٠ من المرتزقة، سوى الأتباع والمتطوعة الذين لم يكونوا بأقل من المرتزقة، بينما انطلق داود بن عيسى أحد القادة العباسيين المشاهير في أرض الروم في ٧٠٠٠ من الجنود في الوقت نفسه، وتم النصر لكليهما: القائد العام العباسى، والقائد الحازم الغطريف»<sup>(١)</sup>، والمقصود بالمرتزقة هم الجيش النظامي الذين يقبضون رواتب من الدولة.

(١) ثابت، نعمان، الجنديّة في الدولة العباسية، م.س، ص ١٤.

وإن دلّ هذا العدد في حملتين متزامنتين على أرض الروم، والبالغ ٢٠٥٠٠ مقاتل نظامي، فإنما يدل على أن جيش العباسين النظامي في عز الدولة العباسية أيام الرشيد لم يكن أقل من نصف مليون جندي.

«وفي سنة ٣٠٥ هـ عندما قدمت رسل ملك الروم وطلبت عقد هدنة مع الخليفة المقتدر كان عدد الجيش المرابط في بغداد ١٦٠٠٠ ما بين راكب ورجل، صفهم بالسلاح من باب الشمامسة إلى دار الخلافة، وبعدهم الخدم وعددهم ٧٠٠، ويليهم الحجاب وهم ٧٠٠، قال أبو العباس: هذا مع تقهقر الخلافة»<sup>(١)</sup>.

نستنتج مما ذكرناه أنه كان لدى العباسيين جيش نظامي، كثير العدد، وكان في الغزوات يلحق بالجيش قوات من المتطوعة، التي تهدف من القتال الجهاد في سبيل الله، ومن المعروف تاريخياً أن الرشيد كان يغزو سنة ويحج سنة.

### المعسكرات

كما أنشأ الخلفاء الراشدون مراكز للجند، وزاد فيها الأمويون، فقد بني العباسيون مراكز جديدة أضافوها إلى ما شيدوه الراشدون والأمويون، منها:

- عسكر أبي جعفر المنصور، وهي مدينة السلام، بغداد حالياً. وقد اختار مكانها بنفسه، وبناها سنة ١٤٥ هـ، وفيها من الميزات ما لا يخفى على قائد استراتيجي.

- عسكر المهدي، ويقع إلى جانب الرصافة، بناها المنصور سنة ١٥١ هـ للمهدي وجندته.

(١) ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ١٥.

- بلدة الرافقة بناها المهدى سنة ١٥٥هـ على طراز مدينة بغداد، فكانت تستوعب الكثير من الخيال والجنود.
- عسكر سامراء، وهي سامراء المعروفة، وتقع شمال بغداد، بدأ المعتصم في بنائها سنة ٢٢١هـ، ثم اتسعت حتى كادت تنافس بغداد. ويروى في سبب بنائها الحوادث والصدامات الناجمة عن كثرة عناصر المعتصم، وبخاصة غلمانه من الأتراك، التي وقعت بينهم وبين أهالي بغداد، وخوف المعتصم من ثورة أو اضطرابات في بغداد لاعتماده الكبير على الأتراك.
- الرحبة: وتُعرف باسم رحبة مالك بن طوق القائد الذي عمرها في زمن هارون الرشيد، وتقع في منطقة الجزيرة.
- اسكندرونة: وهي بلدة صغيرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، بناها أحمد بن أبي دؤاد<sup>(١)</sup>.

### **طرق المواصلات والبريد**

لم يُحل اتساع رقعة دولة المسلمين في زمن العباسيين دون تأمين المواصلات والاتصالات، فعلى طريق الكوفة كلها جعلوا على رأس كل ميل منارة ترشد المسافرين ليلاً، وحسنو الطريق، وفتحوا طرقاً جديدة بين مدن الخلافة، وشيدوا في الطرق المهمة أبنية، وحفروا آباراً، وصنعوا أحواضاً تملأ بالمياه لستيفид منها قوافل المسافرين ولتسهّل تحركات الجيوش. كما اعتمدوا النقل على مراكب في الأنهار الكبيرة المنتشرة في مختلف أنحاء الدولة.

(١) المعلومات الخاصة بالمعسكرات العباسية مقتبسة من: ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ٣٢ وما بعدها.

ولكن أهم إنجازاتهم مما يهم بحثنا الاتصالات التي تفتقنوا فيها، فلم يُحلُّ بعد المسافات دون التواصل الدائم بين الأقاليم والمقاتلين من جهة، وبين الخليفة في بغداد أو غيرها من مقرات الخلافة من جهة أخرى.

فقد ابتكروا طرقاً للاتصالات حديثة ومهمة بالنسبة لزمانهم، فبالإضافة إلى نقل الرسائل بوسائل النقل المتوفرة في ذلك الزمان، أقاموا مراكز للبريد السريع على مختلف الطرق، فكان الفارس أو العداء الذي يحمل البريد ينطلق بأقصى سرعة من مركز إلى المركز الذي يليه، فيسلم البريد إلى ناقل آخر مرتاح ينتظر، فينطلق بالبريد بينما يرتح الحامل الأول، وهكذا يصل البريد بسرعة إلى مكان المقصود. كما اعتمدوا الحمام الراجل، والإشارات الضوئية للإنذار المبكر، فإيقاد النار في أعلى الجبل يراه المراقبون على الجبال الأخرى من عشرات الكيلومترات ويستدل بها على خطر قادم، أو عدو مهاجم، بحسب ما يكون متفق على دلالته من تلك الإشارات.

«وقد بلغ من اهتمامهم بوصول الأخبار بسرعة أن بلغ عدد سكك البريد في إبان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة، بينما بلغت نفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها ١٥٩١٠٠ ديناراً في السنة. وكان للبريد في عهدهم ثمانية خطوط كبرى، أي عمومية، وذلك ما بين بغداد وكل البلاد الآتية: حلب، والشام، ومصر، والحجاج، واليمن، والعراق، وأرمينية، وحدود فارس. ومع هذا الاتساع كانت الأشغال سائرة بكل دقة في مواعيد السفر والوصول وبأمان»<sup>(١)</sup>.

(١) ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص٤٥. وانظر: تاريخ التمدن الإسلامي، م.س، وصبح الأعشى في صناعة الإندا، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

## الثغور

**اهتم العباسيون بتقوية الثغور القائمة وتحسينها، وأضافوا إليها ثغوراً جديدة، منها:**

- طرسوس: وهي حالياً من ولاية أدنة التركية، وكان يرابط فيها جيش كبير من المشاة والفرسان لأهميتها السُّوقية على مضيق يخترق جبال طوروس، وفيه درب بغراس الذي كان يؤدي إلى أرض الروم «وقد أوصى الخليفة المهدي العباسي ببناء طرسوس استناداً إلى التقرير الذي رفعه إليه قائد العربي الحسن بن قحطبة الطائي سنة ١٦٢هـ، فأخبره بما في طرسوس وتحصينها وشحنها بالمقاتلة من عظيم الغناء عن الإسلام»<sup>(١)</sup>.

- أدنة: تقع على نهر سيحان، وبينها وبين طرسوس ١٩ ميلاً، ابتدأ الاهتمام بها في عهد المهدي، وجدد بناء حصنها سنة ١٩٣هـ أبو سليم فرج الخادم، أول قائد تركي دخل في خدمة العباسيين في زمان محمد الأمين بن هارون الرشيد.

- المصيصة: تقع على نهر جيحان في كيليكيا، اهتم بها الأمويون، ولما خلفهم العباسيون زادوا في شحنها بالجند والعتاد، وغدت من الثغور المهمة.

- عين زربة: تقع في جبل سمعان، أمر هارون الرشيد بإعادة بنائها بعدما تراجعت، وأقطع فيها المنازل والدور حتى قويت، ثم خربها الرومان، وأعادها سيف الدولة.

- الكنيسة السوداء: بناها الرومان بحجارة سوداء في شمالي بلاد الشام إلى الغرب من حلب، وكان فيها حصن تعرض للتخريب فأعاد الرشيد بناءها.

---

(١) ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص٥٣.

- الهارونية: أمر الرشيد ببنائها على أطراف جبل اللكام، وشحنها بالمقاتلة.

- بياس: شرق أنطاكيا وغرب المصيصة.

أما الشغور الجزرية فلم يُضف العباسيون ثغوراً جديدة إلى التي بناها الخلفاء الراشدون والأمويون، ولكنهم حصنوا الشغور السابقة مثل مرعش والحدث وسميساط وملطية (ملاطية). وزادوا في أعطيات المرابطين فيها بحسب أهميتها وقربها من العدو.

وهكذا شكلت الحصون والمسالح المتقدمة نقاط إنذار، وشكلت الشغور خطأً دفاعياً قوياً، وجعل العباسيون خلف الشغور عواصم تردد الشغور ب حاجاتها، ويمكن اللجوء إليها عند ضغط العدو الكبير، ومنها: أنطاكية، ومنبج، ودلوك، وربان، وقورس، وتيزين.

ومن الملاحظ مناعة حدود دولة المسلمين في زمن الأمويين بعد أن انتهت الحرب الأهلية، وقوتها في بداية العهد العباسي، ثم ضعف الشغور وفتور عزيمة المدافعين عنها «ولعل السبب القوي في تقاعس المثاغرين عن الدفاع، وتسليمهم الحصون إلى العدو بالصلح والأمان، هو أنهم لم يكونوا ذوي عصبة للدولة، فلقد كان الأمويون يرون بنظرهم الصائب أن من المصلحة العامة، أن يقطعوها قوماً من العرب وليس من الموالي، وذلك لكي تستبسيل الرابطة في الدفاع عنها، ويستميتوا في سبيل القومية التي يعتزون بها، وإنما بالمثاغرين يسلمون البلاد بغير حرب... لقد كان يعززهم الإخلاص للمملكة، وليس منشأ ذلك الإخلاص إلا العصبية»<sup>(١)</sup>.

(١) نعمان، ثابت، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ٦٩. وإلى هذا أشار ابن خلدون في مقدمته.

ولما اعتمد العباسيون على غير العرب أضيف إلى خلافات العرب بين المضيرية واليمنية الخلافات مع الموالي، وبينهم الذين قويت شوكتهم وزاد نفوذهم في الدولة العباسية من خراسانيين وأتراء وغيرهم، وهم كانوا قبائل أيضاً، فانشغل المسلمون بأنفسهم عن غيرهم، بينما اشتدت العصبية عند الروم، وعجز المسلمون عن حماية بلادهم، ثم استولى البوهيميون على الحكم، وتحول الخليفة العباسي إلى ألعوبة بأيدي السلاطين.

### **الصوائف والشواتي**

وصلت دولة المسلمين إلى أقصى حدودها في زمن الأمويين، وأخذ تنظيم الدولة يأخذ شكله المناسب مع ذلك الزمان في عهدهم. وقد ورث العباسيون تلك الدولة، وبعد أن اطمأنوا إلى وضعهم السياسي والعسكري، تابعوا ما بدأه الأمويون.

وبما أن العدو الرئيس الذي كان يحاول استعادة سلطانه في بلاد المسلمين هو الروم، فقد تابع العباسيون تحصين الشغور كما ذكرنا واستمروا في تنظيم حملات في الصيف، وحملات في الشتاء ضد الروم الذين كانوا يغتنمون كل فرصة لغزو بلاد المسلمين.

وقد أطلقوا على غزوات الصيف اسم الصوائف جمع صائفة، وعلى غزوات الشتاء، اسم الشواتي جمع شاتية. والغاية من هذه الحملات إرباك العدو، وعدم السماح له مدة طويلة بالتقاط الأنفاس ومهاجمة بلاد المسلمين.

وقد كانت الصوائف كثيرة الأعداد طويلة المدة لمساعدة جو الصيف على ذلك، على عكس الشواتي.

وفي كتب التاريخ المختلفة تفصيلات وافية عن هذه الصوائف والشواتي.

## صنوف الجيش العباسي

- ١ - الفرسان: هم الخيالة الذين يمتطون الخيول في الحرب، وكانوا يعتمدون الفرسان في الاستطلاع والإغارة والقتال، والمطاردة عند انهزام العدو.
- ٢ - الهجانة: وهم كالفرسان، ولكنهم يركبون الجمال بدل الخيل.
- ٣ - المشاة: وهم المقاتلون الذين يقاتلون مشاةً أو رجالة.
- ٤ - المنجنيقيون: وهم سدنة المنجنيقات على اختلافها واختلاف مقدوفاتها من سهام وحجارة، وكرات نفطية مشتعلة، وقنابل مضيئة، وزجاجية، وحارقة، وجميع المواد المؤذية للعدو، والتي اهتم بها العباسيون، وتفننوا في أنواعها.
- ٥ - النشابون: وهم رماة السهام.
- ٦ - الدبابون: وقد ذكرنا الدبابات وأنواعها سابقاً، وبيننا كيفية استعمالها في الحصار.
- ٧ - الأطباء والممرضون والبياطرة، وهم أشبه بالصحة العسكرية، وفرق الصيانة في العصر الحاضر.
- ٨ - البحريّة: وقد تعددت في زمن العباسيين مراكب الأسطول العربي وتنوعت، فخصصت بعضها لحمل الجنود، وبعضها لحمل المنجنيقات ورمي القواذف الحارقة أو غيرها، وخصصت بعض السفن الصغيرة للمطاردة لسرعة جريانها.  
وتفننوا في صناعة المقدوفات حتى أنهم استعملوا بعضها لرمي الحيات والعقارب.

### **نظم الجيش العباسي**

لم يطرأ تحسن كبير على نظم التجنيد وشروطه ولا على الأسلحة.

واستمر الحال على ما هو عليه من وجود جيش نظامي له رواتبه وأعطياته، ومتطوعة يلحقون بالجيش، ويشكلون احتياطاً له في الحالات الطارئة.

ولكن لم يعد الجهاد ونشر الإسلام المحرك الأساس للمنتظورة باستثناء بعض المرابطين في الشغور، وإنما أصبحت العصبية والمنافع هي الأساس الذي يرسم السلوك.

وقد انقسمت الدولة الإسلامية في زمن العباسيين مبكرة، وأقام الأمويون دولة منفصلة في بلاد الأندلس، نافست دولة المسلمين في بغداد وإن تحرّجت من إعلان خلافة أخرى.

#### **الرتب في عهد العباسيين<sup>(١)</sup>**

- العريف: وتحت إمرته عشرة جنود.

- الخليفة: وتحت أمرته خمسون جندياً.

- القائد: وتحت أمرته مائة جندي.

ثم تغيّر الترتيب فأصبح كالتالي:

- العريف: يرأس ١٠ جنود.

- النقيب: يرأس ١٠٠ جندي (١٠ عرفاء).

(١) مقتبسة من نعمان، ثابت، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ١٢٤.

- القائد: يرأس ١٠٠٠ جندي فيهم ١٠ نقباء و ١٠٠ عريف.
- الأمير: يرأس ١٠٠٠٠ جندي فيهم ١٠ قواد و ١٠٠ نقيب.
- وال الخليفة هو القائد الأعلى للجيش.
- أما وحدات الجيش فقد كانت كالتالي:
- ١ - الجريدة: وهي أقل العساكر عدداً وكذلك الفصيلة.
  - ٢ - الرهط: ويطلق على ما بين الخمسة إلى العشرة من الجنود.
  - ٣ - الحضيرة: وتطلق على عشرة جنود فأقل.
  - ٤ - العصبة: وتسمى المقنب أو المنسر، ويتفاوت عددها بين الثلاثين والأربعين.
  - ٥ - السرية: وعدها بين الأربعين إلى الخمسين جندي.
  - ٦ - الكتيبة: وعدها بين مئة وألف جندي.
  - ٧ - الجيش: ويتألف من أربعة آلاف جندي ومثله الفيلق.
  - ٨ - الجحفل: وعده من ألف إلى أربعة آلاف جندي ويكون فيه الخيل والمشاة.
  - ٩ - الخميس: ويتألف من أربعة آلاف إلى اثنين عشر ألفاً، ويسمى الخميس لتكوينه من خمسة أقسام هي: المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب.
  - ١٠ - العسكر: ويطلق على جميع أفراد الجيش<sup>(١)</sup>.

(١) القرغولي، جهادية، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول (٢٢٣٢ - ١٣٢)، م.س، ص ١٦٥.

وبرز في الدولة العباسية أمراء كثيرون، واستطاع العباسيون في العهد العباسي الأول الدفاع عن دولتهم وملكيتهم، مع أن العقيدة القتالية اختلفت عنها في صدر الإسلام، ولكن مع تقدم الأيام بدأت الدولة تتفكك، وبخاصة لاعتمادها على غير العرب، وربما على أعداء العرب من فرس وترك وغيرهم. وأصبحت المصلحة تحكم الجميع من أعلى الهرم إلى أسفله.

صحيح أن أحداً من المسلمين في ولاية من الولايات لم يجرؤ على إعلان نفسه خليفة خوفاً من ثورة الناس عليه، ولكن الخليفة أصبح رمزاً لا سلطة فعلية له. وفي أواخر أيام الخلافة العباسية غداً لعبة بأيدي قواده يخلعونه متى شاؤوا ويعينون من شاؤوا.

واستمر الحال على هذه المنوال حتى سقطت الخلافة العباسية.

وقد وصف المؤرخ سهيل طقوش السنوات الأخيرة من الخلافة العباسية فقال: «بقيام السلاغقة الترك بزغ عصر جديد مهم في تاريخ الخلافة والإسلام. ولما ظهروا من الشرق في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقة، وكانت دولة الخلافة العباسية قد تمزقت إرباً إرباً. فالآمويون قد استتب أمرهم في الأندلس، وكذلك العبيديون في مصر وشمال إفريقيا، ... أما شمالي سوريا والجزيرة الفراتية فقد رأينا كيف آل أمرهما إلى أيدي زعماء من الشائرين العرب...»<sup>(١)</sup>.

وبقي الخليفة في عهد السلاغقة اسم بلا مسمى حتى هاجم المنطقة المغول قادمين من الشرق فقضوا على الإمارات واستباحوا المدن واحتلوا

---

(١) طقوش، سهيل: تاريخ الدولة العباسية، م.س، ص ٢٣٧.

بغداد، وقتل هولاكو آخر الخلفاء العباسيين المستعصم في شهر صفر ٦٥٦هـ - شباط ١٢٥٨م<sup>(١)</sup>.

وساعد في ذلك خيانة وزير المستعصم الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي، واتصالاته مع هولاكو، وخلافاته مع الوزير السنوي مجاهد الدين آبيك الدواندار الصغير.

وهكذا فرغ مقام الخلافة ودخلت البلاد مرحلة من الصراعات لا يدخل بحثها ضمن موضوعنا<sup>(٢)</sup>.

### الأسلحة في العهد العباسي

لم يخترع العباسيون أسلحة جديدة، ولكنهم طوروا كثيراً من الأسلحة المعروفة، وبخاصة في وسائل الحصار المختلفة. وتفننوا في استعمال النار اليونانية حتى أنهم استعملوا السهام الملتقطة، وكل ذلك مبني على أسرار النار اليونانية والمواد المركبة منها<sup>(٣)</sup> وكذلك تفننوا في استعمالها. كما اكتسبوا من الفرس كثيراً من التحسينات على أدوات القتال.

وجرى في عهدهم تطور كبير في القطع البحرية التي تشكل الأسطول، وتعددت مهام الأسطول فاختصت كل قطعة بنوع من المهام القتالية.

وببدأ في العصر العباسي يتميز قادة الجندي بالبساطة.

(١) طقوش، سهيل: تاريخ الدولة العباسية، م.س، ص ٢٥٤.

(٢) في عهد الظاهر بيبرس المملوكي الذي حكم مصر وسوريا عين أحد أفراد الأسرة العباسية خليفة ومقره مصر، من دون سلطات فعلية. طقوش، سهيل: تاريخ الدولة العباسية، م.س، ص ٢٥٥.

(٣) نعمان، ثابت، الجندي في الدولة العباسية، م.س، ص ١٩٨.

وقد اختلف الحكم العباسي عن الحكم الأموي باعتماد العباسين على الأعاجم والموالي، لأنهم كانوا عmad ثورة العباسين على الأمويين نتيجة كرههم العرب الذين هزمواهم وقضوا على دولتهم، ولئن استطاع خلفاء العباسين الأول القضاء على نفوذ الأعاجم ونكب بعض عائلاتهم كما فعل المنصور مع أبي مسلم الخراساني، والرشيد مع البرامكة، فإن متآخري الخلفاء العباسيين أصبحوا ألعوبة بيد الجندي من أعاجم أو أتراك، حتى قضى هولاكو على الخلافة العباسية في شهر صفر سنة ٦٥٦هـ / شباط ١٢٥٨م. وقتل المستعصم آخر خليفة - كما ذكرنا سابقاً -، وبقي منصب الخلافة شاغراً حتى سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م عندما نصب الظاهر بيبرس أحد أفراد الأسرة العباسية خليفة ليضفي على حكمه شرعية، واستمر الحال على هذا المنوال في مصر حتى سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م حيث ضم السلطان العثماني سليم الأول مصر إلى الدولة العثمانية، وشغل العثمانيون منصب الخلافة حتى ألغها كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤م<sup>(١)</sup>.

### خلاصة العهد العباسي

نظراً لطول مدة الخلافة العباسية، والتغيرات السياسية التي طرأت عليها، نستطيع أن نقول إنها كانت عهوداً وليس عهداً واحداً، ويرى بعض المؤرخين أن العهد العباسي انتهى بانتهاء عهد المعتصم، وهم على حق، وأكثر من ذلك فقد كانت عهود عظماء خلفاء العباسين متأرجحة بين نفوذ الخليفة العربي، ونفوذ الأجانب من فرس وترك في أغلب الأحيان.

---

(١) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة العباسية، م.س، ص ٢٥٥.

وقد استطاع الخلفاء الأقواء في العهد العباسي الأول التخلص من نفوذ الفرس في ما عُرف بنكبة أبي مسلم الخراساني ونكبة البرامكة، وكل ذلك نتيجة صراع عنصري أزاله الإسلام وساوى بين الناس لدرجة أن الخلفاء الأقواء من بني العباس كانت أمهاطهم من الجواري. فالمنصور أمه سلام (أم ولد)، والهادي والرشيد وأمهما الخيزران (أم ولد)، والمأمون أمه مراجل (أم ولد)، والمعتصم أمه ماردة (أم ولد)<sup>(١)</sup>.

ونتيجة لمحاولات الفرس السيطرة على الحكم وانتزاع الخلافة أو التحكم بها، ولمحاولة الخلفاء استعادة السلطة كلما شعروا باهتزازها، وللاستعانة بالترك ضد الفرس ومحاولة الترك أيضاً السيطرة على الحكم، ونظراً لكثره الاضطرابات ومحاولات العصيان والثورة من قبل الطالبيين والفرس والزنج والمزدكيين وغيرهم، فقد ساد القوات المسلحة الاضطراب والتشرذم، ولم نجد تقدماً ملحوظاً فيها عن العصر الأموي، بل ربما كان العصر الأموي أكثر تنظيماً.

وقد خبت روح الجهاد، باستثناء حماسة بعض الخلفاء، وما كان معظم قتالهم إلا دفاعاً عن ملكهم وحدود بلادهم.

«أما التجنيد في الدولة العباسية فقد كان خاصعاً للمال [لا للجهاد]، حيث صارت الجنديّة مهنة مربحة، وكان الجندي يتربّون المرتبات، فإن سلمت إليهم في إبانها وإن شغبوا على من أخْرَهَا، وربما قتلوه، كما كانوا لجشعهم ينتهزون أدنى المناسبات للمطالبة بالمال، والشطط في ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدماً أو أكثر»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: طقوش، تاريخ الدولة العباسية.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س، ج ٥ ص ٣١.

«فلما كثر المال في أيديهم شاع الترف، وشروع الترف مفسدة للجند، وقتل لروح الجندي. فألفَ كثير من الناس اتخاذ المخاصل بدل السيف، وخضاب الأيدي بالحناء بدل الدماء»<sup>(١)</sup>.

وهكذا تصبح الأمور عندما يتدخل العسكر في السياسة، خلافات، واقتتال، يتبعه أضمحلال وهوان، وسيطرة الأعداء.

### عهود الانقسام والدوليات

ينتهي العصر العباسي الأول نظرياً بوفاة الواشق ابن المعتصم سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م، ولكن الواقع أن الدولة الواحدة، والخلافة بمفهومها الإسلامي انتهت في ذلك التاريخ على الرغم من استمرار وجود خليفة للمسلمين نظرياً أو اسمياً حتى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م يوم سقوط بغداد على يد هولاكو كما ذكرنا سابقاً.

وأثناء حكم العباسيين ظهرت دول عدّة، وبعضها استمر حتى بعد سقوط الدولة العباسية، منها:

الأدارسة ٧٨٨ - ٩٨٥م

الأغالبة ٨٠٠ - ٩٠٩م

الزيديون ٨٢٠ - ٨٦٦م، و٩٤٣ - ١٠١٨م، و١١٧٣ - ١٢٥٢م

السامانيون ٨٧٤ - ٩٨٩م

الطولونيون ٨٦٨ - ٩٠٥م

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ج١ ص٢٩٩. وانظر: عون، عبد الرؤوف: الفن الحربي في صدر الإسلام، م.س، ص١٠٤.

الفاطميون ٩١٠ - ١١٧١ م  
الحمدانيون ٩٢٩ - ١٠٠٣ م  
البوبيهيون ٩٣٢ - ١٠٥٥ م  
الإخشيديون ٩٣٥ - ٩٦٩ م  
الغزنويون ٩٦٢ - ١١٨٦ م  
السلاجقة ١٠٣٨ - ١١٥٧ م  
المرابطون ١٠٦١ - ١١٤٧ م  
الزنكيون ١١٢٧ - ١٢٣٣ م  
الموحدون ١١٣٠ - ١٢٦٨ م  
الأيوبيون ١١٧٤ - ١٢٦٣ م  
الحفصيون ١٢٣٠ - ١٥٧٣ م  
المماليك ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

هذا بالإضافة إلى دولة الأمويين في الأندلس.

ولا يعني بحثنا التحدث عن القوات المسلحة في هذه الدول، لأنها كلها كانت نماذج مصغرة عن الدولة في العهد الأموي أو العباسي الأول، إذ لم تدخل المعركة أسلحة جديدة، وبقي التطوع مصدراً مهماً لرفد القوات المسلحة كلما داهم بلاد المسلمين خطر كبير.

ويحسن بنا الإشارة إلى أن دولة المماليك اختلف نشوئها عن بقية الدول المذكورة، فقد كان الأيوبيون يعتمدون على أرقاء من كرد وأتراك وشركس وغيرهم، يشترونهم من الأسواق أو يحصلون عليهم نتيجة القتال

والأسر، ويتعتمدون أن يكونوا من صغيري السن، فيربونهم تربية خاصة، ويعلمونهم الفروسية والقتال، «ولهم في تدريب ذلك الجندي طرق خاصة بهم، يبدؤون به منذ دخول المملوك في ملك السلطان، إذا قدم تاجر عرض مملوكاً على السلطان يشتريه و يجعله في طبقته، ويسلمه إلى الطواشى برسم الكتابة، فأول ما يبدأ تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن، وكانت كل طائفة لها فقيه يأتيها كل يوم. ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط، والتمرن بآداب الشريعة الإسلامية ولازمة الصلوات والأذكار، وكان الشائع إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبَّ واحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في ما يحتاج إليه»<sup>(١)</sup>، ومع مرور الأيام زادت أعدادهم حتى غدوا بالآلاف، وزاد نفوذهم، وظهر منهم قادة، وبنبغ علماء، فتدخلوا في الحكم، وكثيراً ما فرضاً آراءهم بالقوة، ووصل بهم الأمر في أواخر الدولة الأيوبية أن أصبحوا يفرضون السلطان الذي يريدون، ثم ورثوا الدولة الأيوبية بقتلهم آخر سلاطينها توران شاه، سنة (١٢٥٠هـ/١٢٤٨م) واستلام الحكم، واستمرت دولتهم في مصر والشام حتى هزمهم السلطان سليم (العثماني) في معركة مرج دابق شمالي سوريا سنة (١٥١٦هـ/٩٢٢م)، وقضى عليهم نهائياً محمد علي في مذبحة القلعة الشهيرة.

\* \* \*

(١) زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، م.س، ج ١ ص ١٧٤.

الباب الثالث

## العهد العثماني





## الفصل الأول

### القوات المساحة في الدولة العثمانية



#### نشأة الدولة العثمانية

كان أجداد العثمانيين يقيمون منذ قديم الزمان في سهول آسيا الغربية، ولما أغار جنكيز خان على تلك المناطق سنة ١٢٢٤هـ/١٢٢٦ م خرج أمير إحدى القبائل التركمانية وجذ عثمان الأول، سليمان شاه، على رأس زهاء خمسين ألفاً من قبيلته يتخيرون منازل ملائمة حتى استقروا في أذربيجان، ولما هاجم السلاجقة خراسان قفل راجعاً إلى موطنه الأصلي، وأثناء عبور الفرات غرق فيه سنة ١٢٣١هـ/١٢٣١ م، فاختلف أولاده الأربع، فمنهم من اختار متابعة طريقه إلى بلاده، ومنهم من اختار البقاء مع أحدهم أرطغرل الذي قصد بلاد الأناضول مع أربعينه بيت من قومه، فيهم نحو ٤٤٠ فارساً.

وفي أحد الأيام شاهد جيشين يتقاذلان، وكان أقلهما عدداً قد أشرف على الهرب، فانضم إليه وقاتل معه حتى انتصر، وتبيّن أن ذلك الجيش يعود إلى السلطان علاء الدين كيقباد بن كيحسرو السلجوقي، والجيش الثاني يعود لهولاكو خان من حفدة جنكيز خان ملك المغول. ولما علم السلطان السلجوقي بما حدث استدعى أرطغرل وعطف عليه وعلى عشيرته وأقطعه الأراضي الواقعة بجهتي طومانيج وأسكىشـهـر

١٢٦٤هـ/١٢٦٠م<sup>(١)</sup>، وأصبح من خاصته، وكان يعتمد عليه في حروبه، ويقطعه أرض جديدة بعد كل انتصار، ولما توفي أرطغرل سنة ١٢٨٨هـ/١٢٨٧م عينَ الملك علاء الدين ابن أرطغرل عثمان مكانه، وهو مؤسس الدولة العثمانية وإليه تنسب.

هكذا ولدت الدولة العثمانية، وأخذت في التقدم والازدهار حتى توصلت إلى حكم معظم العالم الإسلامي، المعروف في ذلك الزمان، وأجزاء كبيرة من آسيا وأوروبا، وعلى يدي أحد سلاطينها (محمد الفاتح) جرى فتح القسطنطينية التي استعصت على الفتح الإسلامي عدّة قرون، وتقدمت قواتهم في أوروبا، واحتلت مناطق شاسعة في شرقي أوروبا، واستمرت حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تآمرت معظم دول الدنيا عليها. وفرضت إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م بموجب معاهدة لوزان التي وقعتها عن تركيا، وارثة الدولة العثمانية، مصطفى أتاتورك.

هذه لمحة موجزة عن نشأة الدولة العثمانية التي شهدت إنجازات عسكرية كبيرة، وتطورات كثيرة مع تقدُّم الزمن.

### **بدايات القوات المسلحة العثمانية**

نظرًا لطول عهد الدولة العثمانية، من سنة ١٢٨٨م لغاية ١٩٢٤م، وحصول تطورات كبيرة في الأسلحة، من القتال بالسيف والرمح والسهام، إلى

(١) سرهنوك، الميرلاي إسماعيل: تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة د. حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، بلا رقم طبعة، سنة ١٩٨٨م، ص ٩ وما بعدها. وفرييد، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، لبنان، ط ١٢، ٢٠١٢م، ص ١١٥ وما بعدها.

القتال بالبنادق والمدافع والطائرات، فقد تغيرت عدّة مرات التشكيلات العسكرية، وطرق سوقها، وإدارة شؤونها، ورتب ضباطها.

ففي بداية إقامة الدولة (الإمارة) لم تكن القوات المسلحة سوى فرسان قبيلة تركية اشتهر رجالها بالإقدام والشجاعة، ولم يختلف سلاحهم عن الأسلحة السائدة في كل المجتمعات المعاصرة لهم والتي تحدثنا عنها.

في عهد عثمان الأول بن أرطغرل الذي ينسب العثمانيون إليه (١٢٨٨ - ١٣٢٦م) كانت القوات المسلحة هي فرسان القبيلة، وتُجمع كلما دعت الحاجة بطريق المناداة، في المكان والوقت المحددين، ثم يخرجون إلى الحرب<sup>(١)</sup>، وبعد عودتهم يرجع كل فارس (مجاهد) إلى عمله الأصلي، ولم تكن تصرف لهم رواتب أو معاشات، بل كانوا يستفيدون من الغنائم وما يقطعهم الحاكم من أراضٍ يستثمرونها.

وتدل تسمية هؤلاء الفرسان، والجماعات المؤازرة لهم مثل: غازيان روم (أي مجاهدو الروم) على أن الدافع الأول لهم للقتال هو نشر الدين، ومجاهدة الروم، بالإضافة إلى دافع الغنيمة والتوسيع.

وفي بحثنا القوات المسلحة العثمانية سنخالف ما درج عليه المؤلفون الذين كتبوا في هذا الموضوع، إذ حافظوا على المصطلحات العثمانية، مثل: القبوقولية، وأوجاق، وبلوكتات، وأورطة، وغيرها، مما لا يستوعبه القارئ المعاصر. ولذلك سنحاول استعمال المصطلحات السائدة في العصر الحاضر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩م، ص ٣٨١.

## قوات الانكشارية

حكم عثمان خان الأول مؤسس الدولة العثمانية ٢٧ سنة، وتوفي في رمضان ٧٢٦هـ / آب ١٣٢٦م بعد أن أوصى بخلافته لثاني أولاده «أورخان»، وتولى ابنه البكر علاء الدين ما يشبه رئاسة الوزارة، واهتم بالشؤون الداخلية بينما اهتم أورخان بالشؤون العسكرية.

ومن أهم أعمال علاء الدين تنظيم القوات المسلحة، وإنشاء جيش للدولة بدل جمع القوات أثناء الحرب، وقد خشي تكتلات الجند ضمن قبائلهم، فاقتصر عليه خاندرلي قره خليل (توفي ١٣٨٧م) قاضي بورصة آنذاك وأحد مشاهير الأتراك ومفكريهم تشكيل وحدات نظامية، «فكانَت هذه الوحدات تضم المشاة (يايا) والفرسان (مُسلّم) حسبما اقترح «قره خليل»، وكانت المرحلة الأولى هي جمع ألفين من فتیان الترك الأشداء، ألف للمشاة، وألف للفرسان. وهؤلاء سوف يتتقاضون أجوراً أثناء الحرب، أما في زمن السلم فسوف ينشغلون بزراعة الأرضي التي ستخصص لهم. فلما ازداد عدد المشاة والفرسان مع مرور الوقت، كانوا يذهبون إلى الحرب بالتناوب. وينقسم جنود المشاة إلى جماعات تضم عشرة جنود، وبلوكات [وحدات] تضم مئة جندي، وكان يوجد على رأس الجماعة قائد اسمه (أونباشي) [أي رئيس العشيرة]، وعلى رأس البلوك قائد اسمه (يوزباشي) [أي رئيس المئة]، بينما يقود الجميع قائد اسمه (بيكباشي) [أي رئيس ألف].

أما جنود الفرسان (مُسلّم) فقد انقسموا إلى أوجاقات [وحدات أو أفواج] تضم كل منها ثلاثين فارساً، يقضي الأمر بذهاب خمسة منهم إلى الحرب. وكانت تشارك في الفتوح العثمانية الأولى قوات أخرى دائمة ومؤقتة، تحت أسماء، مثل: عَزْب، وجانباز، وغريب، وجراخور. وهؤلاء

**المشاة والفرسان الذين استخدمو بالفعل في الأعمال العسكرية حتى أواسط القرن الخامس عشر<sup>(١)</sup>.**

ولما اتسعت رقعة الدولة واحتاجت إلى مزيد من الجنود، وخف علاء الدين أخو السلطان من تحزب كل فريق من الجناد إلى القبيلة التابع لها، أشار عليه قره خليل «بأخذ الشبان [الصغار] من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأهلهم، وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية، بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تخريبيهم لهم، فأعجب السلطان أورخان هذا الرأي، وأمر بإنفاذذه، ولما صار عنده عدد مناسب منهم، سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكتاشية بأماسية، ليدعوه لهم بخير. فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء، وقال: سمهם (يني تشاري) وترسم بالتركية هكذا (يكيجاري)، أي الجيش الجديد، ثم حرف في العربية فصار إنكشاري<sup>(٢)</sup>.

وأنشت أول ثكنة عسكرية في أدرنه<sup>(٣)</sup>، «ويتمكننا القول إنه في بداية حكم مراد الأول وُضعت أساس ثلاثة أنواع من التشكيلات الحربية:

- ١ - وحدات الترك شبه العسكرية الفلاحية (يايا) التي كانت تجند للخدمات العسكرية مراراً، وتتمتع بتسهيلات ضرائية على هذا العمل.
- ٢ - فيلق المشاة (الألف) المكون من المسيحيين المعتقدين للإسلام الذين كانوا يخدمون ويقبضون الأجر.

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٣٨٢. وسرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، م.س، ص ١٥.

(٢) فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص ١٢٣.

(٣) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٣٨٤.

٣ - وفيق الحرس من المحاربين الغلمان (العييد) الذين كانوا يشكلون حرساً شخصياً للحاكم العثماني»<sup>(١)</sup>.

وكانَتِ الْقُوَّاتُ الْمُسْلِحَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ تَنْطُورُ بِنَطْرُ الدُّولَةِ وَاتْسَاعِهَا، وَتَزَادَ حَاجَاتُهَا لِمُتَابَعَةِ الْفَتوَحَاتِ وَضَبْطِ الْأَمْنِ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَعْدَدِ الْجَيُوشِ وَالْوَاحِدَاتِ فَقَدْ بَقِيتِ الْانْكَشَارِيَّةُ أَهْمَهُهَا وَأَقْوَاهَا، وَبِخَاصَّةِ أَنَّ السُّلْطَانَ مَرَادَ الْأَوَّلَ (١٣٦٠ - ١٣٨٩م) اهْتَمَ بِتَوْسِيعِهَا وَتَقوِيَّتِهَا، كَمَا اهْتَمَ بِزِيادةِ الْقُطْعِ الْبَحْرِيِّ فِي بَحْرِ مَرْمَرَةِ نَقْلِ الْجُنُودِ.

وَنَظَّمَ سِلاحَ الْفَرَسَانِ (الْخَيَالَةِ) الْمُسْمَى «السَّبَاهِيَّ»<sup>(٢)</sup> وَاخْتَارَ لِرَايَاتِهِمْ وَأَعْلَامَهُمُ الْلَّوْنَ الْأَحْمَرَ، وَلَا يَزَالُ إِلَى الْآنِ لَوْنَ الْعَلْمِ التُّرْكِيِّ الْأَحْمَرَ.

وَقَدْ ظَهَرَ الْمَدْفَعَ لِأَوْلِ مَرَةٍ فِي عَهْدِهِ فِي وَاقْعَةِ قَوْصُوهُ<sup>(٣)</sup>.

وَلَكِنَّ الْقُوَّاتُ الْمُسْلِحَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ وَاجْهَتْ نِكْسَةً كَبِيرَةً فِي زَمْنِ السُّلْطَانِ بايزِيدِ الْأَوَّلِ (١٤٠٣ - ١٣٨٩م) إِذَا وَاجَهَ جَيُوشَ تِيمُورِ لِنْكَ بِالْقُرْبِ مِنْ آنْقَرَةَ، «وَلَمَّا اسْتَعَدَ الطَّرْفَانَ لِلقتَالِ وَوَقَعَتِ الْعَيْنُ عَلَى الْعَيْنِ، انْفَصَلَ جَنُودُ اِيْدِينِ، وَمِنْشَا، وَصَارُوْخَانَ<sup>(٤)</sup>، الَّذِينَ بِجَيْشِ الْعُثْمَانِيِّينَ، وَعَدْدُهُمْ خَمْسُونَ أَلْفًا، وَانْضَمُوا إِلَى تِيمُورِ لِنْكَ لِوُجُودِ أَمْرَائِهِمُ الْأَصْلَيْنِ الَّذِينَ اسْتَولَى الْعُثْمَانِيُّونَ عَلَى بِلَادِهِمْ مَعَهُ. وَكَانُوا التَّجَوَّلُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدُوهُ مِنْ بَأْسِهِ، فَضَعَفَتْ بِذَلِكَ

(١) اِيْرِيْنَا بِيْتِروْسِيَان، الْانْكَشَارِيُّونَ فِي الْامْبِراطُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، مَرْكَزُ جَمِيعَةِ الْمَاجِدِ، دِبِيُّ وَمَعْهُدُ الْدِرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ فِي الْمُجَمِعِ الْعَلْمِيِّ الرُّوسِيِّ، فَرعُ بَطْرِسْبُورَغُ، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص١٨.

(٢) سِرْهِنْك، م.س، ص٢١.

(٣) الْمُصْدَرُ نَفْسُهُ، ص٢٢.

(٤) هِيَ أَسْمَاءُ مَنَاطِقٍ وَمَدَنٍ فَتَحَهَا الْعُثْمَانِيُّونَ.

قوة العثمانيين جداً، وداخلهم الخوف، ووقع الخلل في صفوفهم، ولم يبق لهم إلا الانكشارية، وعدهم عشرة آلاف وعساكر الروملي<sup>(١)</sup>.

ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا عدد عساكر الروملي. وقد انهزم العثمانيون هزيمة منكرة وأسر سلطانهم بايزيد وابنه، ثم مات في الأسر.

وبعد معركة سهل أنقرة دخلت آسيا الصغرى في فوضى عارمة، فقد أعاد تيمورلنك حكام الإمارات التي كان العثمانيون قد استولوا عليها إلى إماراتهم، وغادر المنطقة باتجاه الصين حيث توفي هناك. ودخل أبناء السلطان بايزيد الأول في حروب وصراعات لادعاء كل منهم حقه في وراثة أبيه، إلى أن تغلب أحد أبنائه محمد جلبي، الذي حكم من ١٤١٣ إلى ١٤٢١. وكان عهده كله عهد حروب، ومع ذلك استطاع استعادة الدولة بعد أن آلت إلى السقوط، وانتقل الحكم بعده إلى ابنه مراد خان الثاني. وبعدما استتب له الأمر، عاود مسيرة والده ومن سبقه في الاهتمام بالقوات المسلحة والفتورات، فحاصر القسطنطينية بمئتي ألف مقاتل<sup>(٢)</sup> سنة ١٤٢٢ للمرة الرابعة في العهد العثماني من دون التمكن من فتحها.

وأراد اعتزال الحكم وتسليم السلطة إلى ولده محمد الثاني (الفاتح)، فثارت الانكشارية، ولم تتوافق على ذلك، فقرر العودة إلى الحكم وكسر شوكتهم، وشغلهم بالحرب<sup>(٣)</sup>، وكان موقف الانكشارية هذا أول تدخل منهم في السياسة.

\* \* \*

(١) سرهنك، م.س، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧.

## الفصل الثاني

### عهد محمد الفاتح والتطورات اللاحقة



#### عهد محمد الفاتح

في عهد محمد الفاتح بلغت القوات المسلحة درجة كبيرة من القوة والتنظيم، فقد حاصر القسطنطينية بمئتي ألف جندي، وبأسطول من ثلاثمائة قطعة بحرية حربية وكثير من سفن النقل<sup>(١)</sup>، وأمر بصناعة مدفع هائل بالغ المؤخرة في قدرته على التدمير. وابتدع نقل السفن براً إلى خليج غلطة لإتمام الحصار. واستطاع فتح المدينة التي استعصت على الفتح من زمن الأمويين حتى عهد الفاتح، وتم فتحها يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٩٨٥هـ / ٢٩ أيار ١٤٥٣.

وفي رواية للمؤرخ محمد فريد «فحاصر السلطان المدينة في أوائل إبريل سنة ١٤٥٣ م من جهة البر بجيش يبلغ المئتين وخمسين ألف جندي، ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية (مدفعية) وضع بها مدافع جسمية صنعها صانع مجري شهير اسمه (أوربان) كانت تقدّف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطاراً إلى مسافة ميل»<sup>(٢)</sup>، ويبدو أن المقصود رطلًا لا قنطاراً لاستحالة رفع قذيفة بهذا الوزن.

(١) سرهنوك، م.س، ص ٤٠.

(٢) فريد، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص ١٦١.

وقد بلغت القوات المسلحة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح أوج قوتها، ومع أننا لم نستطع الحصول على إحصاءات لها فإننا نقدر أنها لم تكن تقلُّ عن نصف مليون مقاتل تحت السلاح، ويمكن تجنيد ضعفها عند الحاجة، وهذا التقدير يعتمد على الأعداد التي كان يخرج بها هو أو قادته لفتح بلاد جديدة أو إخماد ثورات.

«فقد حاصر محمد الفاتح القسطنطينية بجيش قوامه مئتي ألف مقاتل (٢٠٠,٠٠٠)، وأسطول مؤلف من ثلاثة عشر غرَابَةً حربية، وكثير من سفن النقل وآلات الحصار»<sup>(١)</sup>.

«كما أنه أرسل عمارة بحرية (أسطولاً) مؤلفة من ١٦٠ سفينتين حربيتين وجيشاً برياً يبلغ مئتا ألف مقاتل تحت قيادة قائد اسمه مسيح باشا في حملة لفتح رودوس»<sup>(٢)</sup>. وإرسال جيش بهذا الحجم في مهمة لاحتلال جزيرة يدل على عظمة القوات المسلحة العثمانية وقوتها في ذلك الزمن.

وكانت ثكنة الجنود الانكشارية الأولى أنشئت في أدرنة، وبعد فتح القسطنطينية أنشأ فيها ثكنة.

«فكانَتِ الثكناتُ الأولى تُعرف باسم الغُرف القديمة (اسكي اوده لر)، وكان لهذه الغرف عدد من الأبواب للدخول إليها والخروج منها بشكل محكم، وقد كانت الغرف الجديدة مسرحاً لحركات عديدة من التمرد والعصيان. وكانت ثكنات الانكشارية تنقسم من الداخل إلى أقسام أو غرف مخصصة لكل أورطة وبلوك. كما كانت الغرف الجديدة تضم أماكن

(١) سرهنك، م.س، ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥.

مثل التعليمخانة، وساحة تُعرف باسم (آت ميداني) ومسجدًا يُعرف باسم (اورطة جامعي) ومطبخاً، ومعملًا، وغير ذلك...»

وكانَ عمليّة إعاشتهم وأمكالهم ومشربهم أمراً يرجع إليهم، وكان لكل أورطة أو بلوك دست طعام خاص [قدر كبير]، ويأخذون حاجتهم من اللحم من أماكن معينة وبأسعار ثابتة<sup>(١)</sup>.

وأخذت قدور طبخهم سمعة كبيرة لأنهم كانوا يقلبونها عندما يتمردون.

وكان الزواج ممنوعاً على الانكشارية، فلما جاء السلطان سليم الأول أباحه لكتار السن منهم، وكان يطلق على ولد الانكشاري اسم (قول أو غلي) أي ولد الجندي<sup>(٢)</sup>.

### الوحدات الإدارية

اهتم العثمانيون بتأمين كل ما يلزم المقاتلين من تأمين السلاح وصيانته وإصلاح المعطوب منه. ومع تقدُّم الأسلحة، ودخول الأسلحة النارية في الخدمة عملوا على تصنيع الذخائر، وإنشاء مخازن للأسلحة، وأهم المخازن كانت في استانبول، تليها مخازن في بودين وبلغراد.

ونظراً لارتباط أعمال هذه الوحدات بالانكشارية، فقد تأسست - كما جاء في الكتب التركية - أوجاق [وحدات أو أفواج] الجبجية عقب تأسيس أوجاق الانكشارية<sup>(٣)</sup>.

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٣٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩١.

«وكانوا يختصرون جماعات في صنع الأسلحة وفي تعميرها وإصلاح البارود، وعندما لا تكفي طاقة معامل الأوجاق لسد حاجة الجيوش في مادة معينة كانت الدولة تشتريها من معامل التجار والحرفيين. وكانت جبجية [عناصر] العاصمة يقضون ثلاث سنوات في الخدمة في القلاع الموجودة في الخارج. ومع ذلك يوجد عدا هؤلاء جبجية آخرون في القلاع من الأهالي المحليين يتصرفون على إقطاعاتٍ بدلاً من الرواتب. وكان الجبجية ينقلون الأسلحة والعتاد الذي يستخدمه الانكشارية أثناء الحرب على ظهور البغال والجمال، ويرابطون وراء معسكر الجيش الرئيس»<sup>(١)</sup>.

### سلاح المدفعية

أنشئ سلاح المدفعية بعد تشكيل الانكشارية، وجرى تنظيمه والاهتمام به بشكل كبير في زمن السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١م)، وتألفت وحداته من قسمين رئисين: أحدهما يتولى صناعة المدافع وذخائرها وتصلیح ما يخرب منها، والثاني يتألف من العناصر التي تستخدماها.

وتشعبت الخدمات في السلاح من سائقي عربات جر المدافع إلى الرماة (الطبوجية)، وأنشئت مصانع كثيرة في استانبول وبلغراد وغيرهما من المدن.

وتتنوعت أنواع المدفع وأحجامها وقدائفها، واستُخدم في تصنيعها الحديد والنحاس والبرونز، وأعطوا كل عيار من المدفع اسمًا خاصاً بها. وقبل اختراع السيارات كانوا ينقلون المدفع الخفيف على الجمال والبغال، أما المدفع الثقيل فكانوا يحملونها على عربات تجرها الدواب.

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٣٩٢.

وقائد المدفعية اسمه (طوبجي باشي)، والمسؤول عن صناعة المدافع أقل مرتبة من قائد السلاح، واسمه (دوكومجي باشي)<sup>(١)</sup>.

وكان يتلقى المدفعيون رواتب كل ثلاثة أشهر، وكانت أعدادهم تنقص وتزيد بحسب وضع الدولة العام، ففي القرن السادس عشر بلغ عددهم ١٢٠٠، ثم ارتفع في القرن السابع عشر إلى ألفين، وأحياناً إلى ثلاثة آلاف، أما في أوائل القرن التاسع عشر فقد تجاوز عددهم خمسة آلاف.

وقد واجهت المدفعية العثمانية تحديات كثيرة، فهي بدأت التقدم مع القرن الخامس عشر، وبلغت أوج قوتها في القرن السادس عشر، ثم أخذت بالتراجع في القرن السابع عشر، ولما لاحظ ذلك السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) استدعى خبراء فرنسيين وعمل على إعادة تنظيم السلاح وتجديده، بعد إدراكه تفوق الدول الغربية في النواحي الفنية. وعلى الرغم مما أحرزته المدفعية من تقدم فقد واجهت نكسات ولم تستطع مجاراة التقدم الغربي الكبير في المدفعية الذي رافق التقدم الصناعي الأوروبي بشكل عام.

### **القوات المتحركة والفرسان**

كان العثمانيون في بداية عهدهم مقاتلين فرساناً – كما ذكرنا في أول البحث – وكان فرسان القبيلة يُستدعون فيلبون النداء، ولكن بعد أخذ الدولة شكلها، كان لا بد من تنظيم الفرسان الذين شكلوا قوة متفوقة على مثيلاتها في الدول الأخرى لأكثر من قرنين من الزمان. وكان أول ما نظم منهم وحدات «السباهية» و«السلحدارية»، وكان الخيالة أرفع درجة من

---

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٣٩٤.

القوات الراجلة، ولكنها تأتي بعدها من حيث النفوذ<sup>(١)</sup>. وكان السباهية - باعتبارهم جنود المعية السلطانية - يتولون وقت السلم مهمة تحصيل أموال الميري (الضرائب)، ويتوالون أثناء الحرب مهمة حماية السلطان. وتنقسم السباهية إلى وحدات صغيرة عدده كل منها ثلاثة يترأسهم ضابط يعرف باسم (آغا السباهية).

ويلحق بسلاح الفرسان ووحدات إدارية تهتم بعلف الخيول وتربيتها ومداواتها، وكل ما يلزم لتبقى جاهزة للقتال.

وكانت الخيالة تخضع لنظم خاصة لناحية الانضباط والعقوبات والمعاشات. ويختار منها الفتيان البواسل ليشغلوا وحدات النخبة «السواري» التي بقيت قائمة حتى إلغاء الانكشارية.

### الأيات والسناجق

وفي بداية عهد الدولة العثمانية كانت رقعة الأرض التي تحكمها صغيرة، ومع توسيع الدولة وانتشارها بدأ تقسيمها إلى «أيات» أي وحدات إدارية سميت لاحقاً ولايات بدل أيات. وكان الوالي يطالب بتجهيز جنود بحسب اتساع ولacity، وعدد سكانها، وإجمالي دخلها.

وكانت كل إيدية تنقسم إلى سناجق. وأثناء الحرب تلتتحق قوات السناجق وينضم بعضها إلى بعض تحت قيادة الوالي، ويشكل مجموع قوات الولايات، مع القوات التي تحت تصرف السلطان في العاصمة القوات المسلحة العثمانية.

---

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٣٩٦.

## البحرية العثمانية

تعرف العثمانيون على البحر لأول مرة بعد إلحاقةهم بالإمارات في الأناضول التي لها سواحل على بحر مرمرة وبحر ايجة، وأدركوا أهمية مضيق الدردنيل على أيام السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٣م)، فأقاموا قاعدة بحرية في غليبولى سنة ١٣٩٠م، واعتمدوا في تشكيل وحدات البحرية على الشبان غير المتزوجين للعمل على السفن، وعُرفت تلك القوات باسم «قوات العَزَب»<sup>(١)</sup>.

ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وأدرك أهمية الأسطول وسلاح البحرية، زاد من اهتمامه بتنمية هذا السلاح، حتى عدّه كثير من المؤرخين مؤسس البحرية العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وأولى الترسانات البحرية الكبرى أقيمت في غليبولى على أيام السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٣م)، وجرى توسيعها في القرن السادس عشر، أما الترسانة ذات المزالق التي أقامها محمد الفاتح في القرن الذهبي فبقيت نصف قرن، وقد وسّعها سليمان الأول، ومن بعده سليمان القانوني.

وبعد دخول العثمانيين مصر استغلوا الترسانة المملوكية في السويس وشكلوا هناك أسطولاً قوياً، وجعلوا لذلك الأسطول قيادة مستقلة، منوطة بولاية مصر.

واهتمت الدولة العثمانية بذلك الأسطول لمساعدة الدول المسلمة في الهند<sup>(٣)</sup>.

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٤١٥.

(٢) سرهنك، م.س، ص ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤١٧.

في بداية عهد البحرية العثمانية كان «القبطان باشا» أي قائد البحر هو المسؤول عن كل ما يتعلق بالشؤون البحرية، وكان برتبة أمير سنجدق، أي ما يوازي تقريرياً القائم مقام المسؤول عن قضاء في معظم التقسيمات الإدارية الحالية.

ولما تولى خير الدين ببروس هذا المنصب حصل، هو ومن جاء بعده، على رتبة وزير، وأصبح قائد البحر من الأعضاء الطبيعيين في الديوان الهمایونی، أي ديوان السلطان.

«وكان عدد كبير من جزر بحر ایجه والبحر الأبيض المتوسط يشكل كل منها سنجدقاً تابعاً لأیالة القبطان، ويُعرف أمراء تلك السنادق باسم أمراء البحر «دریابکاری». وعند وقوع حرب بحرية كان عدد الجنود الذين تخرجهم الأیالة يبلغ ٤٥٠٠ جندي، عدا جنود العَزب البالغ عددهم ١٨٩٣ بحّاراً، كما كانت الجزائر وتونس وطرابلس الغرب قادرة على إخراج قوة يتراوح عدد جنودها بين ٣٠٠٠ - ٥٠٠٠ جندي ...»

واستمر منصب قيادة البحر حتى عام ١٨٨٠، ثم ألغى وحلّ محله نظارة البحرية (بحرية نظاري)<sup>(١)</sup>.

«وأطلق العثمانيون على الربابنة والملاحين بوجه عام اسم (قبطان) أو الاسم الأكثر شيوعاً، وهو (رئيس)، وابتداءً من أواخر الفرن السابع عشر بدأت تظهر رتب جديدة لق沃اد البحر، مثل (قبودانة - بطرونا - رياله)، فالقبودانة: فريق أول، أي رتبة تناظر الآن رتبة (أدميرال)، ويطلق على سفينته اسم (قبودانة همایون)، والبطرونا: هو الفريق، أي رتبة تناظر الآن

(١) سرهنك، م.س، ص ٤١٩.

رتبة نائب أدمiral، وهي تعادل رتبة البكلربكي، أو أمير السنجق. ويطلق على سفينته اسم (بطرونة همايون)، أما الريالة: فهي رتبة تعادل رتبة العميد البحري، ويطلق على السفينة التي يركبها صاحب هذه الرتبة اسم (ريالة همايون) ولكل واحد منهم علم وراية مميزة، ذات ألوان مختلفة تدل على درجته<sup>(١)</sup>.

وكان يتبع البحرية ورش صناعة السفن وتصليحها، وقد تطورت السفن العثمانية بحسب تقدم الزمن من سفن صغيرة تبحر بالمجاذيف إلى سفن شراعية، وأخرى مختلطة.

وكان عدد الأشرعة يتناسب مع حجم كل سفينة، ولكل سفينة اسم معين.

واستعمل العثمانيون الأسرى والمحكومين في تجديف السفن، ثم عدلوا عن ذلك واعتمدوا على الجنود النظاميين.

وبقيت البحرية العثمانية على امتداد القرن السادس عشر تتتفوق على بحرية الدول المعاصرة لها، وبلغت أوج قوتها على عهد خير الدين بربروس.

وببدأ تراجع البحرية العثمانية مع تراجع الدولة ومؤسساتها، وبخاصة عندما بدأ تعين قواد لا علاقة لهم بالشؤون البحرية، ولعجز الدولة عن مسيرة التطور الذي طرأ على الدول البحرية من الدول الأوروبية والنهضة الصناعية التي شهدتها تلك الدول.

---

(١) سرهنك، م.س، ص ٤١٩.

وقد حاول أواخر السلاطين إحياء البحرية العثمانية، فاشترت الدولة في عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) عدداً من السفن المدرعة من إنكلترا بلغ عددها ١٠٦ سفن، وأدخلت تعديلات على وزارة البحرية، وأصبحت الدولة العثمانية تملك ثالث أكبر الأسطولين في العالم<sup>(١)</sup>.

ولكن شراء السفن من الخارج أرهق الدولة، ومع ذلك لم تستطع مجاراة بعض الدول الأوروبية العريقة في البحرية ببريطانيا.

\* \* \*

---

(١) سرہنک، م.س، ص ٤٢٣.

### الفصل الثالث

## القوات المسلحة أواخر العهد العثماني



### تدهور القوات المسلحة العثمانية

بدأ تدهور القوات المسلحة العثمانية، وبخاصة الانكشارية الذين شكلوا القوات الرئيسية في هذه القوات منذ زمن مراد الثاني عندما تنازل لابنه محمد وثاروا عليه لعدم موافقتهم على ذلك الإجراء، ولكن قوة شخصية السلطان مراد مكتنطه من كسر شوكتهم وإشغالهم بالحروب. ولما توفي ولده الذي تسلّم الحكم بعده السلطان محمد الفاتح، استغل الانكشارية عدم وجود ولد عهده بايزيد الثاني في العاصمة، ولم تعجبهم تصرفات الصدر الأعظم فقتلوه. ولما وصل السلطان الجديد إلى استانبول هدأ الأحوال بتقديم الهدايا والأعطيات إلى الضباط والجنود كلّ بحسب رتبته، ما جعل ذلك عادةً يتبعها الانكشارية كلما سُنحت لهم الفرصة، وأرادوا الحصول على مكافآت جديدة، حتى بلغ بهم الحال أن ساهموا في عزل السلطان مصطفى خان الأول، ولما حاول خلفه عثمان خان الثاني إصلاح وضع القوات المسلحة ثار عليه الانكشارية وقتلوه، وأعادوا مصطفى خان الأول<sup>(١)</sup>.

ولم يتراجع الانكشارية عن نشر الفوضى والتدخل في السياسة ومحاربة الإصلاح ومخالفة الأنظمة والقوانين، حتى اضطر السلطان

(١) فريد، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص ٢٧٨.

محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) إلى القضاء عليهم بمساعدة أركان حكمه الذين ضاقوا ذرعاً بتصرفات الانكشارية، فدكَ ثكناتهم بالمدفعية<sup>(١)</sup>، وأزرته صنوف الأسلحة من غير الانكشارية. وبذلك تخلص من شرورهم، وتمكن من متابعة إصلاحاته.

### محاولات إصلاح القوات المسلحة العثمانية

لم يختلف سلاطين بني عثمان عن غيرهم من ملوك الزمان، فقد كان منهم الضعيف والمتهاؤن، وكان فيهم القوي المتمكن، والصنف الثاني كانوا يرون تدهور قوة السلطنة فيحاولون إصلاح القوات المسلحة وإعادتها إلى سابق عهدها، وبخاصة أن العثمانيين على الرغم من طول عهدهم فإنهم لم يرتاحوا يوماً من الحروب، إن كانت ضد أعدائهم الكثري، أو في ما بينهم على السلطة، هذا بالإضافة إلى محاولات بعض الولاة الانفصال عن الدولة الأم.

ولما حاول السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢٢ م) الإصلاح دفع حياته ثمناً لمحاولته، نتيجة فساد الانكشارية التي كانت في بدايتها - كما ذكرنا - مثالاً للانضباط والاندفاع للحرب والجهاد. وقد استطاع السلطان مراد الرابع (١٦٤٠ - ١٦٤٣ م) إجراء بعض الإصلاحات في قوات الانكشارية، أما الإصلاح المهم فقد كان سنة ١٧٠١ م، وأدى إلى انخفاض عددها إلى النصف بعد أن كانوا سبعين ألفاً<sup>(٢)</sup> كما جرت بعض الإصلاحات في مختلف القطاعات العسكرية الأخرى.

(١) فريد، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص ٤٠٠.

(٢) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٤٠٦.

وفي القرن الثامن عشر لاحظت الدولة العثمانية التفوق العسكري للدول الأوروبية المعادية لها، فجرت محاولات جادة للإصلاح في عهد السلطان محمود الأول<sup>(١)</sup> (١٧٣٠ - ١٧٥٣م)، إذ استدعي خبراء أجانب، وأعاد تنظيم الوحدات العسكرية، وافتتح مدرسة حربية لتخریج الضباط. وأما السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤م) فقد جرى في زمانه إعادة تنظيم سلاح المدفعية، وأنشأ «دار الهندسة البحرية الهمایونیة».

وفي عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) الذي تعرف على الأوضاع في أوروبا في حياة والده، وهو ولی للعهد، وعندما تسلم السلطة قرر تشكيل جيش جديد على الرغم من معارضة الانكشارية التي كانت قد ترهّلت وأبت التدريب.

ونجح في إنشاء جيش نظامي جديد بلباس موحد ورتب عسكرية، وبلغ تعداده سريعاً ١٢٠٠ جندي، «وعمل على إصلاح الشغور، وبناء القلاع الحصينة لحمايتها، ثم أنشأ عدة مراكب بحرية على شاكلة أحدث المراكب الفرنساوية والإنكليزية، واستحضر عدداً عظيماً من مهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع في معامل الطوبخانة العامرة، وأصلح مدرسة البحرية، ومدرسة الطوبجية التي أسسها البارون دي توت المجري، وترجم لتأمذتها مؤلفات المعلم فوبان الفرنساوي في فن الاستحكامات...»<sup>(٢)</sup>، ولكن حسد الانكشارية لهذا الجيش، ودسائس الدول الأوروبية التي لم ترغب بعودة الدولة العثمانية إلى منعتها أدت إلى تمرد عام ١٨٠٨م، هذا بالإضافة إلى تحجر المفتى الذي «أفتى بأن كل

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٤٠٦.

(٢) فريد، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص ٣٧١.

سلطان يُدخل نظمات الإفريز وعواوينهم، ويُجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحًا للملك»<sup>(١)</sup>.

وهكذا تعاون الانكشارية ومعارضو النظام الجديد ضد السلطان الذي أضطر إلى إلغاء النظام الجديد<sup>(٢)</sup>، ولكن خوف الانكشارية من عودته عن قراره جعلهم يعزلونه لعدم صلاحيته بحسب فتوى المفتى، ويولون بدلاً عنه السلطان مصطفى خان الرابع (١٧٠٨ - ١٨٠٨م) الذين كان كآللة يديرها مبغضو النظام الجديد<sup>(٣)</sup>، ولم يلبث أن سُقِيَ بالكأس الذي شربها سلفه، ولكن تولي السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) أعاد حركة الإصلاح إلى زخمها، وأضطر لتنفيذ إصلاحاته إلى القضاء على الانكشارية وتصفيتها نهائياً كما ذكرنا سابقاً.

ثم أنشأ تشكيلاً عسكرياً جديداً باسم «العساكر المنصورة المحمدية» وكان هذا الجيش يقبل الشبان بين ١٥ - ٣٠ سنة، وبلغ حجم هذا الجيش ١٢٠٠٠ جندي سريعاً، وجرى تقسيمه إلى ثمانية وحدات (بلوكتات) يبلغ تعداد الوحدة منها ١٥٠٠ جندي، يترأسها ضابط برتبة «بيكباشي»، ويترأس ثمانينتهم ضابط كبير باسم «باش بيكباشي». وكانت كل وحدة تضم مدفعية، وعربات، وفرقة موسيقى، وإمام، وطبيب، وجراح. وفي وقت السلم يضطلعون بمهمة الأمن.

واستدعت الدولة الخبراء من أوروبا، وفرضت لكل جندي أو قائد راتباً معيناً، ويرتدون زياً عسكرياً موحداً، ولكل رتبة إشارة خاصة بها. ومن يقضي مدة محددة في الخدمة يخصص له راتب تقاعدي.

(١) فريد، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص ٣٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٨.

أي باختصار أصبح للدولة العثمانية جيش على الطراز المعروف في العصر الحاضر، ثم أقرت الخدمة العسكرية الإلزامية.

وفي سنة ١٨٤٣م كانت القوات البرية العثمانية موزعة على خمسة جيوش: الجيش الأول ويتشكل من جنود الخاصة، والجيش الثاني «جيش باب السعادة»، والثالث جيش الروملي، والرابع جيش الأنضول، والخامس جيش عربستان، ثم أضيف إلى هذه الجيوش سنة ١٨٤٨م جيشان هما: جيش العراق، وجيش الحجاز<sup>(١)</sup>.

وكان يؤخذ من كل منطقة عدد من العساكر يتناسب مع عدد السكان، وأُغْيِيَ الولد الوحيد من الخدمة الإلزامية، ولما تقرر سنة ١٨٤٨م فرض الجنديَّة على غير المسلمين رُفعت عنهم الجزية، ولما تذمروا تقرر تأجيل تطبيق القانون عليهم.

وفي سنة ١٨٥٦م تقرر فرض الجنديَّة على كل مواطن مسلم أو غير مسلم، وفضَّلَ غير المسلمين إعفاءهم من الجنديَّة مقابل «بدل نقيٍّ».

واستمرت التحسينات والإصلاحات في القوات المسلحة في زمن السلاطين بعد محمود الثاني، وفي عام ١٨٦٩ كان مقر جيش الخاصة في استانبول، وجيش الطونة في شمني، والروملي في مناستر، والأناضول في أرضروم، وجيش سوريا في دمشق، وجيش عربستان في بغداد، وجيشه في اليمن، وكان العدد المقرر لكل جيش ١٧٦٠٠ جندي<sup>(٢)</sup>، وأضيف إلى الجيوش المذكورة سنة ١٩٠٨م فرقة مستقلة مركبها مكة، وأخرى مقرها طرابلس، وبلغ عدد القوات المسلحة في مختلف الأسلحة

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م.س، ص ٤١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١١.

في تلك السنة ٤٠٥٠٠ جندي، يمكن زيادتهم أثناء الحرب من الاحتياط ليبلغ العدد ١,٦٨٣,٠٠٠ جندي. واتبعت القوات العثمانية منهج التعليم العسكري المتبعة في بروسيا (ألمانيا).

وكذلك أنشئت في عهد السلطان عبد العزيز نظارة الحرية، أي ما يشبه اليوم «وزارة الدفاع».

واستمرت الإصلاحات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩م). ولكن تدخل الجيش في السياسة أضعف قراراتهحرية، وحصل انقلاب ١٩٠٨م بسبب ذلك التدخل.

و قبل إنتهاء الحديث عن القوات المسلحة نشير إلى أن الرتب العسكرية بعد الإصلاحات كانت من الأعلى إلى الأدنى كالتالي:

- مشير.
- (برنجي فريق) فريق أول.
- (ميرلوا) لواء.
- (مير آلاي) عميد.
- (قائم مقام) عقيد.
- (بكباشي) مقدم.
- (صاغ كول أغاسي) رائد.
- (يوزباشي) نقيب.
- ملازم أول.
- ملازم ثان.

وبقيت هذه الرتب سائدة في مصر حتى ما بعد انقلاب ٢٣ يوليو / تموز ١٩٥٢ م ضد الملك فاروق.

ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا واليابان بما عُرف بـ «دول المحور» كانت قواتها المسلحة لا تقل أهمية وقوه عن غيرها من الدول العظمى، وتتألفت من مختلف صنوف الأسلحة بما فيها الطيران، ولكن خسارة دول المحور الحرب أنهى الدولة العثمانية، وخلفتها تركيا التي أعادت تنظيم قواتها المسلحة وفق أسس جديدة، ونظم تختلف عن النظم السابقة.

\* \* \*

## الخلاصة

إذا استعرضنا تطور قوات المسلمين المسلحة من بداية عهدها في زمن الرسول ﷺ إلى إعلان انتهاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال في (١٥ رجب ١٣٤٤هـ / ٣ آذار ١٩٢٤م)<sup>(١)</sup>، نجد أنه في بداية الإسلام كان كل مسلم مقاتلاً، وأن الشعب كله كان مسلحاً، وأن غاية القتال كانت إما رد العداون (دافعية) أو التعرض للأعداء (هجومية).

وفرض الجهاد لا لنشر الإسلام بالسيف، ولا للعدوان ولكن لتحرير الإنسان من الخرافات ومن عبادة البشر والجحود، يؤكّد ذلك أن سكان البلاد الأصليين في البلاد التي فتحها المسلمون لم يجبروا على الدخول في الإسلام، واستمروا على الرغم من الحكم الإسلامي يؤدون شعائرهم الدينية بكل حرية.

ومع أن الجهاد كان دافع المسلمين الأول إلى القتال، فإن الغنائم شكلت دافعاً رديفاً أو مساعداً.

وكان المختلف عن الجهاد في عهد الرسول ﷺ يلقى عقاباً معنوياً ولم يُجبر أحد على القتال.

ولم يختلف الأمر كثيراً في العهد الأموي، وإن فرض التجنيد الإجباري في بعض الحالات.

والتطور المهم في ذلك العهد تشكيل جيش نظامي يتتقاضى رواتب من الدولة، وبدء ظهور نوعين من المقاتلين المتطوعة (المجاهدون) والجنود النظاميون.

(١) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، ط٤، ٢٠١٧م، ص٥٣.

ومع ذلك بقيت فكرة الجهاد في سبيل الله هي هاجس الخلفاء الأمويين العرب والمواطنين المسلمين، ولكن الدولة الأموية لم تعمّر طويلاً وخلفها العباسيون. وقد تبيّن لنا أثر سيطرة غير العرب في زمن العباسيين وتراجع الفتوحات، وتحوّل معظم الجهاد إلى قتال داعي باستثناء عهود بعض الخلفاء.

ولم يتغير وضع القوات المسلحة في زمن العباسيين كثيراً عما كان عليه في زمن الأمويين، وربما يعود ذلك إلى ضعف التطور في ميدان الأسلحة.

أما في زمن الدولة العثمانية، فقد كانت بدايات القوات المسلحة العثمانية كبداياتها في صدر الإسلام من طرائق استئثار المقاتلين، إلى التسلیح والفروشية، والرغبة في الجهاد. ثم تطورت هذه القوات - كما رأينا - حتى غدت جيوشاً نظامية مثل جيوش الدول الحديثة.

ومن هذا الاستعراض لتاريخ القوات المسلحة في دول المسلمين المتعاقبة خلال أكثر من ألف عام نجد أن أسباب الانتصار تتلخص بوجود شعب مسلح يعتنق عقيدة ذروة سلامها الجهاد إن للدفاع عن النفس والأرض والعرض، أو لتحرير الإنسان مهما كانت عقيدته من ظلم الإنسان. وبوجود ثقة واحترام متبادل بين القيادة والأمة.

وعقيدة الجهاد بشكل خاص تستنهض الأمة عند توافر قائد مخلص مؤهل. وللقائد أكبر الأثر في توحيد الأمة واستئثارها، ولا يكفي الإخلاص من دون الكفاءة، ولا الكفاءة من دون الإخلاص، وقد ظهر ذلك جلياً في حالتين، كانت بلاد المسلمين فيهما مقسمة قبل ظهور قائد يجمعها، ويحسن قيادتها، الأولى في معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وبين الفرنجة (الحروب

الصلبية). والثانية في معركة عين جالوت (١٢٦٠هـ/١٢٥٨م) بين المسلمين بقيادة المظفر قطز، والمغول بقيادة كتبغا أحد قواد هولاكو المشهور بوحشيته وانتصاراته في التاريخ.

ففي الحالتين المذكورتين اعtdى على بلاد المسلمين واحتلت أجزاء كبيرة منها، ولما استطاع كل من القائدين الحكيمين استنهاض المسلمين وإيقاظ فرض الجهاد في عقيدتهم، تطوعت أعداد كبيرة من المسلمين المجاهدين، وانضموا تحت قيادة واحدة ما أدى إلى انتصارهم في المعركتين الحاسمتين اللتين غيرتا مسيرة التاريخ.

بقيت ملحوظة لا بد منها قبل اختتام هذه الفقرة لأهميتها، وهي أن القوات المسلحة عندما تتدخل في السياسة تفسد كما تفسد السياسة وتنهى الدولة، وأبرز حالتين أدى تدخل العسكر في السياسة فيهما إلى ضعف الدولة ثم انهيارها هما تدخل العسكر في السياسة في أواخر العهد العثماني الذي نتج عنه ضعف إمكانات الدولة ثم انهيارها، وتدخل الانكشارية في السياسة في العهد العثماني. فعندما اشتغل الانكشارية بالجهاد حققوا للعثمانيين النصر والشهرة، وعندما تدخلوا في السياسة ساهموا في ضعف الدولة وتدهورها.

ولسنا بحاجة إلى ذكر ما تفعله الجيوش المعاصرة التي تتدخل في السياسة بدولها، فذلك معروض للقارئ في مختلف وسائل الإعلام.

إذاً، إن ما يحقق النصر شعب مسلح ومدرب، مؤمن بعقيدة صالحة تجمعه، وقيادة حكيمة مع وحدة الأمة أو معظمها. فلو لا وحدة بلاد الشام والعراق ومصر لما تحقق النصر في معركتي حطين وعين جالوت، أما الفراغ الروحي، والتهرب من التدريب على حمل السلاح، وتفتتت الأمة، فينبع عنه ما نراه حالياً في بلاد المسلمين، ولا ضرورة لوصفه.



## الباب الرابع

# تطلعات لتنظيم قوّات مساحة





## الفصل الأول

# القوات المساحة المعاصرة



### تمهيد

تحدثنا في الفصول السابقة عن القوات المسلحة في دولة المسلمين من عهد النبي ﷺ إلى انتهاء الخلافة بانتهاء العهد العثماني. وبمعنى آخر اقتصر بحثنا على القوات المسلحة في دولة واحدة متaramية الأطراف، تدين بعقيدة واحدة، ويعفى فيها أبناء الأديان الأخرى من الجنديية مقابل بدل نقدي، إلا إذا أرادوا القيام بواجب القتال، ولو لم تضم الدولة أقطار المسلمين كافة، ولكنها كانت في معظم الأحيان تضم معظم تلك الأقطار.

وتوقف البحث بعيد الحرب العالمية الأولى، ولم يتطرق إلى الوضع السياسي في نهاية عهد الدولة العثمانية، على الرغم من ارتباطه الوثيق بالوضع العسكري، وذلك لكي لا يتشعب البحث كثيراً. ونرى من الضروري الإشارة إلى أن البلاد العربية، وهي ذات غالبية مسلمة، كانت في أواخر العهد العثماني ناقمة على سياسة تمييز العنصر التركي، وعلى إجبار المواطنين على القتال في بلاد بعيدة، وفي ظروف قاسية لأهداف لا يقتنعون بها. وما زال الناس، في بلاد الشام خاصة، يتوارثون الأحاديث عن ما كانوا يلاقونه في ما يسمونه «السفر برلك».

وإحجام العرب عن القتال تحت راية العثمانيين، ثم ثورتهم ضدّها كان السبب الرئيس لانهزمتها في الحرب العالمية الأولى، وإنما كانت تغييرات نتائج تلك الحرب، ولتغير مجرى الأحداث.

إذ كان تأثير الطيران لا يزال ضعيفاً، ودور الجندي المدرب والشجاع في القتال كبيراً.

والعرب والأتراء من أشجع شعوب الأرض وأكثرها تحملًا للصعاب. وعندما نتحدث الآن عن قوات مسلحة حديثة، تواجهنا تغييرات وتطورات كبيرة في ميدان الأسلحة، ما يجعل القوات المسلحة المنتظرة تختلف كثيراً عن الماضي في مختلف النواحي على الرغم من بقاء الجندي حتى الآن العنصر الفعال في أي معركة. إذ لا تعدُّ أي منطقة مسيطرًا عليها سيطرة فعلية كاملة ما لم يكن الجنود على أرضها. هذا إذا استثنينا المناطق التي يمكن السيطرة عليها بالنار، وهذه المناطق لا تخضع عادةً لأي من الفريقين المتقاتلين.

ومعظم القوات المسلحة المعاصرة في مختلف الدول تقسم إلى أسلحة (صنوف) تكبر أو تصغر بحسب إمكانات كل دولة.

فهناك القوات البرية وفيها المشاة، والمدرعات، والمدفعية، والصواريخ، والهندسة، وبعض الفروع الأخرى.

ويتبعها النقل، والإدارة، والصناعات الحربية.

وهناك القوات الجوية، والقوات البحرية، وفي بعض الدول فروع لأنواع كيميائية وجوثومية وأسلحة ذرية وهيدروجينية وغيرها، ويطلق عليها أسلحة الدمار الشامل لما تخلّفه من أضرار ولما تقتل من أحياء.

وتختلف التشكيلات العسكرية بين دولة وأخرى من حيث تعداد كل وحدة.

وبعض الدول تفرض على مواطنيها خدمة إلزامية لمدة معينة تختلف بين دولة وأخرى، فيما تعتمد دول أخرى على الجيوش فحسب، ولا تفرض على مواطنيها خدمة إلزامية.

وتلحق بالقوات المسلحة قوى الأمن الداخلي والشرطة والدرك والأمن العام والمخابرات على اختلاف تسمياتها بين دولة وأخرى، غالباً ما توضع هذه القوى على اختلافها تحت تصرّف القوات المسلحة العسكرية في الحروب.

### **الجيوش العربية**

بعد الحرب العالمية الأولى فرض المنتصرون (الحلفاء) شروطهم على الدولة العثمانية وتقسيم الدول العربية، بينما كان العرب يحلمون بوحدة بلادهم التي كانت ولايات تتبع الدولة العثمانية، وقيادة العالم الإسلامي من جديد، كما وعدهم الحلفاء، ليضمنوا انضمامهم إليهم وثورتهم على الدولة العثمانية.

وبما أننا تجاه واقع قائم، إن لم نقل مفروض، نرى أنه من واجبنا إلقاء نظرة على واقع الجيوش العربية قبل عرض أفكار لإنشاء قوات مسلحة في دولة مفترضة.

في بعض الدول العربية لا يعتمد نظام الخدمة الإلزامية، ونتيجة لذلك لا يعرف معظم المواطنين استخدام السلاح ولا طرق الدفاع عن بلادهم، ولا حتى الحماية الفردية في حال تعرض البلد للعدوان.

فمن المعروف أن الحروب الحديثة لا تقتصر على المعارك في جبهات القتال، بل يعم شرورها جميع أراضي الدول المتحاربة. ويعود هذا التهاؤن في تحضير المواطنين للدفاع عن بلادهم وأنفسهم ومقاومة المعتدين خطأ كبيراً، وإهمالاً لا مسوغ له.

وأما في الدول التي تعتمد الخدمة الإلزامية، فهناك تفاوت في جدواها لأسباب سنينها في ما يأتي:

فهي في حدّها الأدنى تبلغ سنتين، يمضي المجند منها عادة ستة أشهر في التدريب، وبقية المدة خدمة في القطعات العسكرية. وفي بعض الدول تمدد الخدمة الإلزامية بسبب ظروف استثنائية لتصل إلى سنوات عدة تؤثر في مستقبل الشاب... ويسفيد الشباب في بعض الدول من الخدمة الإلزامية فيتعلمون الانضباط، واللياقة البدنية، واستخدام السلاح، وتحمّل المسؤولية، والعمل الجماعي، والتضحية، وغير ذلك.

وفي دول أخرى تشكل الخدمة الإلزامية عقوبة، فهم يمضون مدة خدمتهم إما في بيوتهم مقابل رشاوى يقدمونها إلى ضباطهم، أو خدماً لعائلات الضباط، أو سائقين... فبدل أن يتعلموا العزة والكرامة واستعمال الأسلحة يتذمرون الخنوع والقبول بالمذلة، وتنفيذ أوامر المست والولد...، ولا يستفيدون من الخدمة الإلزامية بشيء يذكر.

أما تشكيلات الجيوش العربية وفروعها ووحداتها واحتياطاتها فهي متتشابهة ولا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في الدول الأخرى، مع اختلافات في المذاهب العسكرية تبعاً للدول الخارجية المتعامل معها. ولا يهم موضوعنا دراسة التشكيلات العسكرية ولا تعداد كل جيش، وبخاصة أن

كل ذلك من الأمور العسكرية السرية، وإن كانت متوافرة لدى مراكز الأبحاث المتخصصة والمنتشرة في معظم الدول المتقدمة.

وأما ملاحظتنا المهمة فهي أن الدول العربية ما زالت تستورد معظم أسلحتها وذخائرها وتجهيزاتها العسكرية من الدول الخارجية، والتي غالباً ما تفرض شروطاً على الدولة المستوردة، وتحدد لها مجالات استخدامها، هذا إن لم تزود الأسلحة المتطرفة المصدرة بأجهزة تعطلها متى شاء.

وملاحظتنا ضرورة العمل الجاد للوصول إلى التسلح الذاتي، والحفاظ على أسراره.

### **الجيش والسياسة**

يقال إن السياسة لم تدخل شيئاً إلا أفسدته، ولكن تدخل القوات المسلحة في السياسة يفسد الاثنين، وإبعاد الجيش عن السياسة لا يقلل من مكانة القوات المسلحة، ولكن طبيعة عمل السياسي تختلف عن طبيعة عمل العسكري.

فالقضية قضية اختصاص وتكامل. وقد رأينا ما آلت إليه حال العباسين ثم الدولة الأيوبية نتيجة تدخل المماليك (الجيش) في شؤون الحكم، كما أطّلعنا على أحوال الدولة العثمانية عندما تدخل العسكر في السياسة.

وهذه أمثلة من التاريخ، بعض النظر عما نشاهده في الدول المعاصرة، فالقارئ يرى ويدرك ما فعله ويفعله الذين سلقو السلطة بالانقلابات العسكرية، وكم أعاقوا تقدم شعوبهم ودولهم.

ولئن جاء في الأثر: اثنان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال، فإنه يمكننا إضافة ثالث هو طالب سلطة، فلا شيء أحب إلى النفس البشرية من سلطة الأمر والنهي، حتى إنه يقال: «آخر ما ينزع الله من قلوب الصالحين حب السلطان».

وهناك طرق كثيرة يمكن للدول اعتمادها لمنع تدخل العسكري في السياسة، منها: حسن التوجيه، وال التربية ابتداء من الأسرة مروراً بالمدارس والجامعات، والكلليات الحربية، ووسائل الإعلام المختلفة. وتفعيل القاعدة الشرعية التي يلخصها الحديث الشريف: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»<sup>(١)</sup> وتطبيقها على القانون، فلا يفرض على العسكري طاعة رئيسه مثلاً إن أمره بالمشاركة في انقلاب عسكري.

يضاف إلى ذلك اختيار الضباط بعناية، ومتابعة دراسة أو ضماعهم في الخدمة، ومراعاة تسليم مراكز القوة إلى ضباط ناضجين خبرة وخلقاً وعمراً، فالشباب شعبة من الجنون، وكثيراً ما يفتقد الشاب الخبرة، فيرى الأمور من زاوية واحدة.

فليست كل الانقلابات العسكرية نتيجة مؤامرات خارجية، ولن يست كلها بداعف شخصية، فبعضها نتيجة سوء ظن بالسلطة الحاكمة، ورغبة في الإصلاح، ولكن كثيراً ما تأتي النتائج عكسية لعدم إحاطة الانقلابيين بمختلف نواحي تعقيدات الحكم داخلياً وخارجياً.

إن ما ذكرناه لا يعني أن أفراد القوات المسلحة سيتحولون إلى آلات؛ فهم أبناء الشعب وأراؤهم معروفة لأسرهم وأقرانهم، وهم يبدون آراءهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في المعجم الأوسط، وغيرهما.

ويشكلون رأياً عاماً، ولكن ما يحرّم عليهم ويمنعون منه هو العمل السياسي، حتى لا يفرض العسكري آراءهم بقوة السلاح. ويمكن لمن يرغب منهم في الانخراط بالعمل السياسي الاستقالة من منصبه والانتقال إلى المجال الجديد وفق الأصول. ويمكن مشاركة أفراد القوات المسلحة في الاستفتاءات بشرط أن يتولى الإشراف عليها لجان مؤلفة من قضاة، وينقلون صناديق أوراق الاقتراع بعد ختمها في القطعات إلى أماكن الفرز بحيث لا تُعرف نتائج تصويت كل قطعة أو فرد فيها، وبذلك ينتفي تأثير القادة على عناصرهم.

كذلك فإن تقارير الأجهزة المختصة تصل إلى المسؤولين ويفترض أن تدرس بعناية. وفي معظم الدول مجالس أمن قومي تتمثل فيها القوات المسلحة، ويؤخذ رأيها في مختلف الأمور المتعلقة بالسياسة العليا.

وفي التاريخ أمثلة لقادة عسكريين نجحوا سياسياً ولكنهم لم يتسلموا السلطة بانقلابات عسكرية ولا حكموا بقوة السلاح وسطوة المخابرات، ومن الأمثلة القريبة آيزنهاور في الولايات المتحدة، وديغول في فرنسا.

\* \* \*

## الفصل الثاني



### مقدرات تنفيذية

#### تمهيد

في كتب التاريخ العربية القديمة نجد تعبيرين يخصان القوات المسلحة، إذ يقسمونها إلى قسمين رئيسين: المتطوعة والمرتزقة، ولن نستعمل هذين المصطلحين، وسنستعيض عن المرتزقة باستعمال القوات النظامية، ونقصد بها الجيش بمختلف أسلحته، والأشخاص الذين اتخذوا الجنديمة مهنة لهم أو عملاً كباقي موظفي الدولة. وبخاصة أنه أصبح مصطلح المرتزقة يعني فئة من المقاتلين امتهنوا القتال مقابل المال، وهم على استعداد للقتال مع من يدفع لهم ولو خارج بلدانهم أو عنها. وأما «المتطوعة» فسنستعمل بدلاً عنها «جند الاحتياط» وإن تقاضوا بدلاً نقدياً هو دائماً رمزي لا يقارن بما يتلقى منه الجنود النظاميون.

#### القوات المسلحة النظامية

في عصر الذرة والصورايخ عابرة القارات، لم تعد قوة الجيوش تقدر ببعدها، ولا بقوة أجساد أفرادها. وأصبح العلم والمعرفة مقدماً على القوة الجسدية، وإن كانت سلامة صحة العسكريين ضرورية لحسن قيامهم بمهامهم الشاقة عادةً، حتى في أوقات السلم. والأمر الذي لا يتغير على مر العصور لكسب الحرب هو ارتفاع المعنويات وقوة الإيمان

بالقضية التي يعمل الجندي لأجلها. فالمعنيات العالية والإيمان بالنصر تمنح الجندي قوة أهم من جميع الأسلحة، والعمل الدؤوب وقت السلم وحسن الإعداد الشامل الذي ستحدث عنه يعطي ثماره وقت الحرب.

وبما أن الجيوش تتالف من مستويات عدة، هي: الضباط، وضباط الصف، والجنود، نخص كل فئة ببعض الملاحظات والاقتراحات.

### الضباط

عندما سُأَلَ رجل حكيمًا عن أفضل الطرق للاهتمام بابنه - الذي لم يولد بعد - وبحسن تربيته، أجابه: تأخرت كثيراً، وكان يقصد أنه كان يجب عليه حسن اختيار الأم التي ستربى الولد. وهكذا الوضع بالنسبة إلى ضباط الجيش، فمن أهم الأمور حسن اختيار فئة الضباط، لأنهم هم الذين ستناط بهم مستقبلاً مهمة تدريب جنودهم، وقيادتهم في الدفاع عن الوطن، وستكون قوى البلد تحت تصرفهم، فإن أساءوا التصرف بها خربوا الأوطان وأضرروا بالسكان. ومن المؤسف الإشارة إلى أنه في معظم البلاد العربية وفي كثير من الحالات لا يتقدم للعمل في القوات المسلحة إلا الذين لم يحصلوا على درجات علمية تؤهلهم لمتابعة دراساتهم العليا، أو أولاد الفقراء والقرى الذين لا يستطيعون دفع تكاليف التعليم العالي، وهذا خطأ كبير لا يصح إهماله، وبخاصة بعد أن تعقدت الأسلحة، وأصبح العمل الفكري في الجيوش الحديثة أهم من العمل الجسدي على أهميته.

إذاً على الأجهزة المختصة أن تدرس أسرة كل طالب انتساب إلى الكليات العسكرية، وبيئته، وأخلاقه، وسمعته في المدارس التي تعلم بها، هذا بالإضافة إلى الفحوصات الطبية والجسدية والنفسية التي يخضع لها طالب الانتساب. وبالإضافة أيضاً إلى الامتحانات العلمية المناسبة،

فلا يصح أن تكون الكليات العسكرية ملجأً للذين لا يحصلون على علامات تؤهلهم لمتابعة دراساتهم العليا. كما يجب أن يكون الدافع الأول لطالب الانتساب إلى القوات المسلحة هو خدمة عقيدته والدفاع عن أرضه وعرضه.

وكذلك تجب مراقبة طلاب الضباط أثناء دراستهم في الكليات العسكرية مراقبة دقيقة من قبل مختصين، وإخضاعهم إلى امتحانات جسدية ونفسية. وعند اكتشاف أي خلل في سلوك أحدهم يستغنى عنه. ولا يصح اعتماد الوساطات في هكذا أمور؛ لأنها تعدّ من أخطر ما يمكن أن تواجهه الأمة. فطالب اليوم قائد الغد، وببيده مقدرات إن أساء التصرف بها أضر بمصالح البلاد والعباد.

بقي علينا أن نشير إلى ضرورة الاهتمام بالضباط بعد إنهاء خدمته، وتأهيله لفترة ما بعد الخدمة التي يجب أن لا تتجاوز مدة سن الستين، وهكذا إذا كان مؤهلاً من مختلف النواحي، فالضابط المتقاعد يملك معلومات مهمة هي ليست ملكه، وعليه تعود الاحتفاظ بها لنفسه في مختلف الظروف والأحوال.

### صف الضباط

إن صف الضباط، أو الرتباء في بعض التسميات، هم عmad كل الجيوش، فهم حلقة الوصل بين الضباط والجنود، وهم على اتصال مباشر مع العسكري، يعيشون معهم ويعرفون أسرارهم، و حاجاتهم، وما يرغبون به وما يشتكون منه، والناجح منهم قد يصبح ضابطاً. وهم عادة يساعدون الضباط في القيام بواجباتهم وفي التدريب، وقد تسمح مهام بعضهم بالاطلاع على أسرار خطيرة في القوات المسلحة، لذلك يجب حسن اختيارهم، وحسن تدريسيهم،

وعدم إهمال مراقبتهم أثناء خدمتهم، والتأكد من أمانتهم ومعتقداتهم، وحفظهم الأسرار العسكرية في الخدمة وبعد تركهم الخدمة.

### الجند

لا تقدر قوة الجيوش في العصر الحاضر بتعدد جنودها، بل بكفاءة هؤلاء الجنود، وإمكاناتهم الجسدية وثقافتهم العسكرية، وإيمانهم العميق بقيادتهم وبعدلة ما توجههم إليه أو تفرضه عليهم، وبالاستعداد للقتال والتضحية في سبيل الدفاع عن بلادهم، ومقدساتهم، وعقيدتهم...

من هنا على الدولة الاهتمام النوعية أكثر من اهتمامها بالكمية، علماً بأن الجندي الأمي لم يعد قادراً على استيعاب الأسلحة الحديثة على اختلاف أنواعها، ولا على استعمالاتها.

وبما أن ما ينفق على الجيوش غير منتج، ولا يفيد في التنمية بل يرهق في أحيان كثيرة ميزانية الدولة، في حين أنها مجبرة على الإعداد، وعلى الحرب أحياناً، للحفاظ على كيانها ومواطنيها، لذلك يجب الاقتصاد ما أمكن في تعداد القوات المسلحة النظامية، والاهتمام بكفاءتها كما ذكرنا آنفاً.

ومن الأهمية بمكان، وبالإضافة إلى تدريب العساكر على أسلحتهم واحتياطاتهم، تدريبيهم على الاحتفاظ بالأسرار العسكرية، وعدم التحدث عنها في مجتمعاتهم، أو إفشاء أماكن وجودهم، وأسماء ضباطهم، وغير ذلك مما تهتم به الجيوش عادة.

وبالإضافة إلى التدريب العسكري، والاهتمام بـ «أكل الجنود وملبسهم»، على القيادة الاهتمام بتنمية العسكري والعقدي، ورفع مستوى اهتمام العلمي بشكل مستمر.

## جنود الاحتياط

جنود الاحتياط يعني شباب الأمة، بل الشعب القادر على حمل السلاح كُلّه. لذلك على الدولة أن تعتمد نظام الخدمة الإلزامية على جميع المواطنين، ولكن ليس بالطريقة التي أشرنا إليها في بحثنا عن واقع بعض الجيوش. حيث تؤثر الخدمة الإلزامية في مستقبل الشباب، ونادراً ما تتحقق النتائج المرجوة منها.

والذي نقترحه هو فرض الخدمة على جميع الشباب، ولمدة سنتين، على أن يجري تنفيذها بين سن ثمانية عشرة عاماً وثمانين عاماً وعشرين عاماً، يختار الشاب هو بنفسه الوقت المناسب له لأداء هذه الخدمة بالتنسيق مع القيادة التي تحدد أوقات الدورات وأماكنها وأوقات الالتحاق والتسريح لكل دورة.

ويتم تقسيم سنة الخدمة الأولى إلى أجزاء أو أقسام.

القسم الأول من الخدمة مدة سنة كاملة، ثلاثة أشهر الأولى يمضيها في التدريب الأولي المعروف في كل الجيوش، وبباقي المدة يمضيها في القطعات إن كانت خدمته في سلاح المشاة بحسب ما ترتئيه القيادة، التي يعود إليها تعين السلاح الذي ترى أن يؤدي المجندي خدمته فيه، معأخذ رغبته بالاعتبار ما أمكن ذلك.

وأما الذين يخدمون في بقية الاختصاصات فيمضون ثلاثة أشهر في التدريب الأولي، وما بين ثلاثة إلى ستة أشهر التالية في مدارس الاختصاص، وبقية المدة في القطعات، ويراعى التمييز بين المجندين بحسب ثقافاتهم واحتياجاتهم الدراسية، ولا يصح المساواة في التدريب والاحتياط بين الأجيال وحاملي شهادة عليا مثلاً.

وأما سنة الخدمة الثانية فتقسم إلى اثنى عشر شهراً، يؤدي من أنهى سنته الأولى من الخدمة في كل سنة لاحقة شهراً يختار هو وقته، يستعيد فيه معلوماته العسكرية ولياقته البدنية، ويطلع على الأسلحة الجديدة، ويبقى بذلك على صلة بالقوات المسلحة، ويستمر ذلك بالنسبة إلى الذين أنهوا السنة الأولى من الخدمة الإلزامية في عمر الثانية والعشرين إلى سن الأربعين، بينما ينتهي من أنهى سنته الأولى من الخدمة الإلزامية في سن تسعه عشر عاماً في سن الواحد والثلاثين.

وبذلك لا تفسد الجنديّة الإلزامية على المواطن مخططاته لحياته، وتضمن الدولة قدرة شعبها على حمايتها والدفاع عنها.

وعلى القيادة تحديد جدول زمني للأوقات التي يسمح فيها للراغبين بالالتحاق لتمضية شهر الاحتياط كل سنة، وتعيين أماكن التحاق مجندي كل منطقة.

ويفترض صدور تشريعات تضمن استمرار دفع راتب شهر الاحتياط المذكور لكل الشباب إن كانوا يعملون موظفين في الدولة أو مؤسسات خاصة، أما أصحاب الأعمال الحرة والمزارعين فيدفع لهم تعويض مناسب عن شهر الخدمة.

ولا يعفى وحيد أبويه أو أحدهما من خدمة سنة واحدة، ولكن يعفى من متابعة التدريب سنة ثانية، ومن الدعوة إلى الاحتياط والمشاركة الفعلية في الحرب، ويمكن الاستفادة من هؤلاء في الخدمات الثابتة عند الضرورة القصوى، فلا يصح أن يبقى مواطن لا يحسن استعمال السلاح ليدافع عن نفسه عند الحاجة.

والأميون من الجنود يجب أن يخضعوا أثناء تأدية الخدمة في السنة

الأولى إلى دورات تعليم أميين، إن كان ذلك أثناء التدريب الأولي أو في القطعات، حيث يجب أن ينظم تعليم الأميين في القطعات باستمرار.

وأما الشابات فيتم تدريبيهن في المدارس والجامعات على الانضباط والانتظام واستعمال السلاح، وأن يخصص لذلك ساعات تدريبية وبرامج خاصة، مع مراعاة التركيز على التمريض والإسعافات الأولية ومداواة الجرحى الذي يجب أن تتقنه نساء الأمة كلهن.

ولا يعني هذا انتقاص حق المرأة في المجتمع وواجبها في الدفاع عن وطنها مثل الرجل، لأن ما يمكن أن تقوم به المرأة في مجالات كثيرة أهم مما يقوم به الرجل. والقضية هي اختصاص وتكامل بحسب مؤهلات كل جنس التي أهله لها خالقه عز وجل.

**والخلاصة:** ينبغي أن يكون الشعب كله مدرباً، وأن يكون مهيئاً للقتال عندما تدعو الحاجة، وأن يندفع إلى القتال عن عقيدته ومقدساته وأرائه من تلقاء نفسه، وأن يشق بالنصر ولا يهتم كثيراً للتضحية بالأموال والأنفس؛ لأن الموت ليس نهاية الحياة، بل نهاية الحياة الدنيا فحسب.

وهذا يتطلب أيضاً أن يعرف كل مواطن تعبئته في أي وحدة عسكرية، وكلمات السر التي تذاع في مختلف وسائل الإعلام داعية الاحتياط، فيتحقق كل مدعو في وحدته فور سماعها. ويتم إجراء تجارب عملية على الاستدعاء وقت السلم؛ ليسهل تنفيذ ذلك وقت الحرب.

## حرس الحدود

توكيل إلى القوات المسلحة في معظم الدول مهمة حماية الحدود، وبعض الدول تشكل وحدات خاصة لهذه الغاية، وبعضها يعتمد الجيش النظامي

والشرطة والدرك. وعندما تكون دولة ما على عداء مع دولة مجاورة أو أكثر فإن توزيع وحدات من الجيش على الحدود وإنشاء مخافر ثابتة ونقاط استناد وخنادق وتحصينات يرهق الجيش ويستنزف خزينة الدولة مادياً.

لذلك نقترح التقليل قدر الإمكان من الاعتماد على الجيش أو حرس الحدود وحده، وذلك بالاعتماد على سكان قرى الحدود، وإنشاء قرى حدودية إن لم توجد قرى بشكل طبيعي، وأن يتم بناء هذه القرى على شكل نقاط استناد متآزرة ومجهزة بتحصينات وملاجئ وأبنية ملائمة للدفاع والقتال، أو على الأقل تأخير تقدم العدو مدة كافية لتحرك الاحتياط الذي يمكن توزيع مقراته بعيداً عن الحدود، وفي أمكنة يسهل التحرك منها، ويمكن متابعة التدريب فيها.

وهذا يتطلب تدريب سكان تلك القرى على استعمال وسائل الاتصال، وعلى القتال، ودقة الملاحظة، بحيث يشكل كل واحد منهم خفيراً، وجندياً عند الحاجة، ويمارس أعماله الطبيعية في الأوقات العادية. وتجهز القرى المشار إليها بوسائل اتصال مناسبة، وأسلحة وذخائر كافية، للاشتباك الأولي في حال حصول أي اعتداء.

ويشبه ما نقترحه ما فعله أجدادنا عندما أسسوا الشعور والرباطات والمسالح، كما ذكرنا في موقعه من هذا البحث. وقد رأينا كم أدت تلك المواقف من خدمات. وبهذه الطريقة نقلل من مصاريف حماية الحدود، ولا تضيّع القوات المسلحة وقتها، الذي يجب أن تصرفه في التدريب، في الحراسات والمراقبة، وإنما تشكل احتياطاً قوياً جاهزاً للزج به عند الحاجة وفور الإنذار أو الاشتباك مع عناصر القرى الحدودية المؤهلة للإنذار والقتال.

## أسلحة الدمار الشامل

أسلحة الدمار الشامل، من ذرّيّة، وغازات سامّة، وجرثومية، كلها محرمة دولياً، ومحرمة إسلامياً، لأنّه لا يجوز في الإسلام قتل غير المقاتلين، وأسلحة الدمار الشامل تقضي على جميع الناس من مقاتلين وغيرهم، ومع ذلك وطالما هي متوافرة عند الأعداء، فيجب أن تكون لدينا أسلحة دمار شامل عقلاً وشرعًا بحسب أمر الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُ نَهْمَمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

والآلية واضحة جلية تأمر بالإعداد ولا تأمر بالاعتداء، ولا علاقة لها بالإرهاب والعمليات الإرهابية المعروفة في العصر الحاضر، والتي تطال الأبرياء من غير المقاتلين، ومن غير الأعداء في كثير من الأحيان. ولو تمعنا في مدلول الآية لوجدنا أن الإعداد المطلوب يؤدي إلى السلام. فطالما أن المسلمين وإن ملكوا القوة المشار إليها، فهم مأمورون بعدم استعمالها وبعدم العداوان ولو كانوا قادرين عليه. فعندما يكونون قادرين على رد العداوان، يحجم العدو عن الاعتداء ويحصل ما يسمى بتوازن الرب، فينتفي القتال والخراب والدمار ويسود السلام.

هذا بالنسبة لضرورة الإعداد العسكري، ويبقى علينا أن نشير إلى تهيئة الأمة بكافة أفرادها وتدريبهم على طائق التصرف في حال تعرضهم إلى العداوان بأسلحة الدمار الشامل، وطرق الوقاية من آثاره الخبيثة.

(١) الأنفال: ٦٠.

فهناك احتياطات وإسعافات أولية يجب أن يعرفها المواطنين، وهذه تُعدُّ من الثقافة العامة التي لا يصحُّ الجهل بها. وكذلك يجب تحضير ملاجيء محصنة ضدَّ الذرَّة، وأقنعة وتجهيزات الحماية من الغازات السامة والإشعاعات النووية، ويدربُ عليها المواطنين أثناء السلم ليستطيعوا تجاوز المحنَّة أثناء الحرب.

\* \* \*



## خاتمة البحث



خلق الله عَجَلَ الأرض، هذا الكوكب الجميل المعطاء، وسخره للإنسان  
 ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَا كَبَرَ وَلَكُمْ مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾<sup>(١)</sup>.

ولغرض نجهله جعل الناس مختلفين، يتقاولون، ويتوادعون ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوُنَ مُخْتَلِفِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويشهد التاريخ صراع الإنسان مع أخيه الإنسان من يوم وجد على هذه الأرض، وسيستمر الصراع والقتال والتحارب إلى نهاية العالم.

وبما أن هذا هو واقع البشر، فعلينا العمل ليكون لنا مكاننا اللائق بنا بين الأمم، وهذا لا يتحقق إلا بامتلاك القوة، والدعوة إلى الحق، وضرب المثل الصالح.

وقد استعرضنا في هذا البحث تطور أحد عناصر القوة في دولة المسلمين خلال حقب التاريخ المختلفة، أي القوة المسلحة، وتبيّن لنا أن تاريخنا لا يختلف عن تاريخ غيرنا من الأمم؛ لأن الله عَجَلَ جعل لما خلق سنناً وقواعد وقوانين طبيعية وبشرية تنطبق على جميع شؤون الحياة،

(١) الملك: ١٥.

(٢) هود: ١١٨.

هكذا هي الحياة وهكذا أرادها خالقها، فمن اعتمد هذه السنن نجح، ومن تواكل وغفل عنها فشل.

كما عرضنا مقتراحات لتحويل الأمة إلى أمة مجاهدة مقاتلة، تملك عقيدة راسخة، تعزز بها وتدافع عنها وعن مقدساتها. وعرضنا طرائق إنشاء جيش نظامي، وخدمة إلزامية تجعل الأمة كلها احتياطاً قابلاً للاستفادة منه عند الحاجة.

ويمكن تلخيص ما توصلنا إليه بكلمات قليلة هي: وحدة الأمة، ورسوخ العقيدة وصلابتها، فهي ترفع المعنويات إلى درجة مذهلة لا تتصدع ولا تتأثر، وقد لاحظنا ذلك في غزوة بدر حيث انتصرت فئة قليلة على فئة كبيرة.

ويلي ذلك وحدة القيادة، وكفاءتها، والتقييد بأوامرها، وحسن انضباط العناصر، فلما خالف بعض العناصر أوامر القيادة في أحد، كانت النتيجة خسائر فادحة.

ويضاف إلى ما ذكرناه ضرورة مسيرة التقدم العلمي في مختلف النواحي، وبخاصة في الشؤون العسكرية وتطور الأسلحة، فلما تخلفت الدولة العثمانية في هذا المضمار، ولم تستطع مجاراة الدول الأوروبية في صناعة الأسلحة تدهورت ثم انهارت.

وتخفيفاً لأعباء الدولة عموماً، والقوات المسلحة خصوصاً، يمكن في أثناء السلم الاستفادة من القوات المسلحة في بناء الملاجئ، وشق الطرقات، والاتصالات، وغيرها من الأعمال المفيدة التي تدخل في اختصاصات بعض الأسلحة، والهندسة والإشارة، وغيرها، وتقدرها القيادة السياسية.

ويجب ألا نخشى ونعيش بالتقدم العلمي الذي حققه الشرق والغرب في مجال «التكنولوجيا» العسكرية، لأن لكل شيء نواحي إيجابية وأخرى سلبية. فتحرير الوحدات والطائرات والصواريخ بوسائل الكترونية يتيح لعالم في هذه الشؤون تعطيل شبكات إدارتها وهو قابع في غرفته أو في أحد الملاجئ، ولهذا ركزنا في بحثنا على الكيفية لا الكمية في القوات المسلحة.

وعلينا ختاماً ألا نغفل تهيئة الأمة لتحمل ويلات الحروب ومصائبها وتقبل نتائجها، فلا تغتر بالنصر، ولا تنهار بالهزيمة، فالدنيا أدوار، ولا يصلح أمر نهاية هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.  
والحمد لله أولاً وآخرأ.

\* \* \*





## أهم المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ**، دار صادر ودار بيروت، بيروت، بلا رقم طبعة، ١٩٦٥ م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، **التاريخ، العبر وديوان المبتدأ والخبر**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٧٧ م.
- ابن خلدون، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٣، ١٩٦٧ م.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار بيروت، بيروت، بلا رقم طبعة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ابن سلام، **كتاب الأموال**، تقديم ودراسة وتحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي، ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، عني بنشره محمود توفيق الكتبى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بلا رقم وتاريخ.
- ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩ م.

- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ت: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧١م.
- ابن هشام، مختصر سيرة ابن هشام، إعداد محمد عفيف الزعبي، مراجعة عبد الحميد الأحدب، دار النفائس، لبنان، ط١٠، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- أبو شريعة، د. إسماعيل، **نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية**، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ايرينا بيتروليان، **الانكشاريون في الامبراطورية العثمانية**، مركز جمعة الماجد، دبي ومعهد الدراسات الشرقية في المجمع العلمي الروسي، فرع بطرسبورغ، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- الأيوبي، الهيثم، **الشعب المسلح**، دار الشورى، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- البخاري، مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تأليف: الإمام أحمد بن محمد بن عبد اللطيف الزبيدي، تحقيق: إبراهيم بركة، مراجعة أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط١٠، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- البلادي، عاتق، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، دار مكة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، **فتح البلدان**، تحقيق د. عبد الله أنيس الطباخ وعمر أنيس الطباخ، مؤسسة المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بلا رقم لطبعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- ثابت، نعمان، الجندي في الدولة العباسية، مطبعة بغداد جديد حسن باشا، بغداد، بلا رقم طبعة، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، بلا رقم طبعة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٨، ٢٠٠٩م.
- خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- الدقدوقي، رفيق، الجندي في عهد الدولة الأموية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩م.
- زكي، القائمقام أحمد، السلاح في الإسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة، بلا رقم وتاريخ.
- زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، بلا رقم طبعة وتاريخ.
- سرهنك، الميرلاي إسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة د. حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، بلا رقم طبعة، سنة ١٩٨٨م.
- سيف بن عمر، الفتنة ووقعة الجمل، إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط٩، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، *تاریخ الرسل والملوک*، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٢، بلا تاريخ.
- طقوش، محمد سهيل، *تاریخ الحروب الصليبية*، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٣٢ھـ/٢٠١١م.
- طقوش، محمد سهيل، *تاریخ الدولة الأموية*، دار النفائس، بيروت، ط٧، ٢٠١٦م.
- طقوش، محمد سهيل، *تاریخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة*، دار النفائس، بيروت، ط٤، ٢٠١٧م.
- العجلانى، منير، *عقبالية الإسلام في أصول الحكم*، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٨٨ھـ/١٩٨٤م.
- عرموش، أحمد راتب، *قيادة الرسول السياسية والعسكرية*، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٣ھـ/٢٠٠٢م.
- العقاد، محمود عباس، *موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية*، دار الكتاب العربي، بيروت.
- عون، عبد الرءوف، *الفن الحربي في صدر الإسلام*، دار المعارف بمصر، القاهرة، بلا رقم طبعة، سنة ١٩٦١.
- غوستاف لوبيون، *حضارة العرب*، ترجمة عادل زعيترا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- فرج، المقدم محمد، *السلام وال الحرب في الإسلام*، دار الفكر العربي، القاهرة، بلا طبعة، سنة ١٩٦٠م.
- الفرغولي، جهادية، *العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في*

- العراق والشام خلال العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ)، نشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ط١، سنة ١٩٨٦م.
- فريد، محمد، تاريخ الدولة العثمانية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، لبنان، ط١٢، ٢٠١٢م.
- القاسمي، ظافر، الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، دار العلم للملاليين، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- قلعه جي، محمد رواس، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط٤، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.
- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنسا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- كاستلان، جورج، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال الدسوقي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
- كمال، أحمد عادل، الطريق إلى المدائن، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.
- كمال، أحمد عادل، القادسية، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- الماوردي، علي بن محمد البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا طبعة وتاريخ.
- محفوظ، اللواء محمد جمال، المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بلا رقم طبعة، ١٩٧٦م.

- النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، **تهذيب الأسماء واللغات**، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، إشراف أحمد راتب عمروش، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٩هـ/٢٠٠٩م.

- الهندي، إحسان، **الحياة العسكرية عند العرب**، مطبعة الجمهورية بدمشق، بلا طبعة وبلا سنة.

- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، **كتاب المغازي**، تحقيق د. مارسل جونس، دار عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- وتر، محمد ضاهر، **الإدارة العسكرية في حروب الرسول ﷺ**، مطبعة الرشيد، حلب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

\* \* \*

# محتوى الكتاب



٥	الإهداء
٧	تقديم
<b>الباب الأول</b>	
<b>المؤسسة العسكرية في عصر النبي ﷺ</b>	
<b>والخلفاء الراشدين</b>	
١٣	<b>الفصل الأول: تكوين شخصية المسلم</b>
١٣	تمهيد
١٨	تكوين شخصية المسلم
٢٣	<b>الفصل الثاني: الإعداد العسكري</b>
٢٣	التشكيلات العسكرية قبل الإسلام
٢٧	جيش الرسول ﷺ
٣٢	<b>الفصل الثالث: إعداد القوات المسلحة</b>
٣٢	تمهيد
٣٤	التدريب العسكري
٣٦	تعيين القادة
٣٩	الانضباط

الإعداد النفسي.....	٤٣
أجر الشهيد.....	٤٦
الألوية والريات والأعلام.....	٤٩
المعسکرات.....	٥٣
<b>الفصل الرابع: التجنيد في صدر الإسلام</b>	<b>٥٨</b>
شروط التجنيد.....	٥٨
الإلزامية التجنيد.....	٥٩
البدل النقدي.....	٦٤
<b>الفصل الخامس: الشؤون الاستخباراتية والإدارية</b>	<b>٦٦</b>
الاستطلاع والاستخبارات.....	٦٦
تمويل الجيش.....	٧٠
الوحدات الإدارية.....	٧٤
إصلاحات عمر الإدارية.....	٧٦
<b>الفصل السادس: أسباب الحرب وأهدافها وأخلاقياتها</b>	<b>٨٠</b>
سمو الهدف في حروب المسلمين.....	٨٠
الثقة بالنصر والظفر.....	٨٣
أخلاقيات الحرب في الإسلام وآدابها.....	٨٦
<b>الفصل السابع: القوات المسلحة في عهد الخلفاء الراشدين</b>	<b>٩٢</b>
المسلمون والرّدّة.....	٩٢
ما بعد الرّدّة.....	٩٧
عمر يستنفر أهل الرّدّة.....	٩٩
نشأة الأسطول العربي (سلاح البحرية).....	١٠٥
انقسام القوات المسلحة في أواخر العهد الراشدي.....	١٠٩

**الباب الثاني**  
**تطور المؤسسة العسكرية**  
**في العهدين الأموي والعباسي**

الفصل الأول: العهد الأموي	١١٥
تمهيد	١١٥
تغيير أهداف الحرب	١١٧
لمحة عن الفتوحات في عهد معاوية	١١٨
تطور القوات المسلحة في العهد الأموي	١٢٠
تطور الأسلحة في العهد الأموي	١٢٣
الفصل الثاني: العهد العباسي	١٢٤
تمهيد	١٢٤
القوات المسلحة في العهد العباسي	١٢٥
عدد الجنود	١٢٦
المعسكرات	١٢٧
طرق المواصلات والبريد	١٢٨
الثغور	١٣٠
الصوائف والشواتي	١٣٢
صنوف الجيش العباسي	١٣٣
نظم الجيش العباسي	١٣٤
الرتب في عهد العباسيين	١٣٤
الأسلحة في العهد العباسي	١٣٧
خلاصة العهد العباسي	١٣٨
عهود الانقسام والدوليات	١٤٠

**الباب الثالث****العهد العثماني**

<b>الفصل الأول: القوات المسلحة في الدولة العثمانية</b>	١٤٥
نشأة الدولة العثمانية	١٤٥
بدايات القوات المسلحة العثمانية	١٤٦
قوات الانكشارية	١٤٨
<b>الفصل الثاني: عهد محمد الفاتح والتطورات اللاحقة</b>	١٥٢
عهد محمد الفاتح	١٥٢
الوحدات الإدارية	١٥٤
سلاح المدفعية	١٥٥
القوات المتحركة والفرسان	١٥٦
الأيات والسنائق	١٥٧
البحرية العثمانية	١٥٨
<b>الفصل الثالث: القوات المسلحة أواخر العهد العثماني</b>	١٦٢
تدهور القوات المسلحة العثمانية	١٦٢
محاولات إصلاح القوات المسلحة العثمانية	١٦٣
الخلاصة	١٦٩

## الباب الرابع

### تطّلّعات لتنظيم قوّات مسلّحة

١٧٥	الفصل الأول: القوات المسلحة المعاصرة
١٧٥	تمهيد (لمحة عن القوات المسلحة المعاصرة)
١٧٧	الجيوش العربية
١٧٩	الجيش والسياسة
١٨٢	الفصل الثاني: مقتراحات تنفيذية
١٨٢	تمهيد
١٨٢	القوات المسلحة النظامية
١٨٣	الضباط
١٨٤	صف الضباط
١٨٥	الجنود
١٨٦	جنود الاحتياط
١٨٨	حرس الحدود
١٩٠	أسلحة الدمار الشامل
١٩٣	خاتمة البحث
١٩٧	أهم المصادر والمراجع
٢٠٣	محتوى الكتاب

## مؤلف الكتاب

**أحمد راتب عرموش**



- مواليد ريف دمشق سنة ١٩٣٦م (الغوطة الغربية - جديدة وادي بردى).
- تابع دراسته الابتدائية والثانوية والجامعة في دمشق.
- ماجستير دراسات إسلامية.
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- انسب إلى الكلية العسكرية سنة ١٩٥٥م وتخرج برتبة ملازم سنة ١٩٥٧م.
- أُحيل على التقاعد بقوة القانون سنة ١٩٦٣م وسُجن مرات عدّة لنشاطه السياسي.
- انتقل إلى لبنان سنة ١٩٦٥م.
- تابع نشاطه السياسي حتى سنة ١٩٧٠م ثم اقتصر على النشاط الثقافي.
- أسس دار النفائس سنة ١٩٧٠م. وما زال يديرها حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب.
- حقّق عدداً من الكتب، وله عدّة مؤلفات.

\* \* \*